مراصد

كراسات علمية ٣١

الخلافة والملك

دراسة في الرؤية الأموية للسلطة

تأليف
الدكتور رضوان السيد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد ٣١

كراسات علمية محكمة تعنى برصد أهم الظواهر الاجتماعية الجديدة لا سيما في الاجتماع الديني العربي والإسلامي، تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية.

رئيس مجلس الإدارة

إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير

خالد عزب

سكرتارية التحرير

أمنية الجميل

التدقيق اللغوي

أحمد شعبان

التصميم الجرافيكي

آمال عزت

الآراء الواردة في «مراصد» تُعَبِّر عن رأي الكاتب فقط، ولا تعبر عن رأي مكتبة الإسكندرية.

الخلافة والملك

دراسة في الرؤية الأموية للسلطة

تأليف
الدكتور رضوان السيد

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

السيد، رضوان، ١٩٤٩-

الخلافة و الملك : دراسة في الرؤية الأموية للسلطة / تأليف رضوان السيد.- الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٦.

ص. سم. (مراصد ؛ ٣١)

تدمك 978-977-452-361-2

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

١. الإسلام و السياسة. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي -322.1 2016805090

ISBN: 978-977-452-361-2

رقم الإيداع: 2016/10158

© ٢٠١٦ مكتبة الإسكندرية.

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يُشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨ الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر. البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

تقديم

بين الدراستين[1] المنشورتين في هذا الإصدار عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية زُهاء السبعة عشر عامًا. والموضوع واحد، وهو طبيعة السلطة المسمّاة بالخلافة في زمن الإسلام الأول، وطبائعها اليوم في أذهان وتصورات الإسلاميين. في الزمن الأول كان هناك تصوران، أحدهما يعتبر مشروع الدولة في الإسلام مشروعًا إلهيًّا. وصحيحٌ أنه معهودٌ إقامته إلى جماعة المسلمين؛ لكنّ الخليفة المتولّي لإنفاذه يكتسب سلطاتٍ قُدسية، ليس بشخصه بل بسبب منصبه عند السنّة، وبشخصه ومنصبه عند الشيعة. أما التصور الآخَر فيعتبر أنّ السلطة هي للجماعة أو المجتمع وتبقى كذلك، ويتولاّها أمير المؤمنين بالشورى نيابةً عن الأمة، وليس له عصمةٌ في شخصه أو منصبه. وقد أصرَّ وُلاةُ الأُمور سواء كانوا سنةً أو شيعةً على حقوق المنصب وميزاته وتوسَّلوا بتصورات موروثة وآثار منحولة عن ملوك فارس والروم، ليدعموا سلطتهم بالدين، بينما اتجهت أنظارُ دُعاة الجماعة والشورى من الفقهاء إلى اعتبار السلطة مصلحية وتدبيرية ووظيفتاها سياسةُ الدنيا وحراسةُ الدين. وهي تقومُ بالأمرين نيابةً عن الأمة. وفي التجربة التاريخية فإنّ الخلافةَ نعِمتْ بزمنٍ إمبراطوريٍّ

(١) الدراسة الأولى صدرت ضمن أعداد سلسلة كراسات «مراصد» الصادرة عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية، العدد ٢٨. ونُشرت تحت عنوان «رؤية الخلافة وبنية الدولة في الإسلام» بتاريخ يناير ٢٠١٦.

لأربعة قرونٍ، ثم تفككت لصالح إماراتٍ وسلطنات، وصارت ذكراها حنينًا إلى زمنٍ ماجدٍ هو زمن الراشدين؛ بينما استقلَّ الفقهاء بإدارة الدين، سواء كانت السلطة خلافةً أو سلطنةً ضعيفةً أو قوية.

ومنذ الزمن الكلاسيكي، تطورت رؤيتان أيضًا لمصائر الخلافة. فعندما تسرَّب الضعْفُ إليها كان من الفقهاء من رأى أنّ المشروعية للسلطة تقوم على ثلاث وحدات: وحدة الأمة، ووحدة الدار، ووحدة السلطة. ولـمَّا لم تعد الخلافةُ قادرةً على الحفاظ على هذه الوحدات (في سياسة الدنيا)، فلماذا لا نلجأُ في تجديد المشروعية إلى صيغة السلطنة، التي بدت أقدر بالكفاية والشوكة على حفظ الدار والدولة والأمة؟ بينما رأى الماوردي في «الأحكام السلطانية» أنّ صيغة الخلافة حصل عليها إجماعٌ تاريخي ما استطاعت السلطنات اكتسابه رغم قوة شوكتها؛ ولذلك فلتبق الشرعية العليا للخلافة، ولتكن علاقتها بالسلطنات علاقة «تفويض»، لتظلَّ السلطةُ واحدةً ولو شكلاً، ورمزًا لوحدة الأمة والدار. وفاز هذا المخرجُ ظاهرًا، لكنّ العثمانيين تجاهلوه على مدى أربعة قرون، إلى أن ضعُفت السلطنة، فعادت لاستخدام المسألة بين ألقاب سلاطينها، وبخاصةٍ السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٦٦-١٩٠٩). وكان ذلك استنصارًا من جانبه بالظلال الدينية التي تحيط بالخلافة التاريخية.

كيف عادت فكرة الخلافة في الزمن المعاصر؟

لقد اجتمعت على ذلك عدة عوامل وأسباب: الثوران الديني الناجم عن الحداثة والعولمة، والفشل الذي خَالَطَ التجربة الثانية للدول الوطنية في العالمين العربي والإسلامي، والصراع الجيوثقافي والجيواستراتيجي، على الإسلام والعرب. فقد أنتجت الحداثة التي بدأت

في ديارنا بالاستعمار تغييرات جذرية في ترتيبات العيش، وأدّى ذلك بالتبع إلى بحثٍ محمومٍ في الأخلاق والتصرفات عن فقهٍ جديدٍ للدين. وهكذا وتحت وطأة نزعات الهوية سادت سمتياتٌ دينيةٌ قاسيةٌ سمّاها مراقبوها من المسلمين: الصحوة. وعلى وقْع استعلاء الهوية المأزومة انفجر ثورانٌ دينيٌّ، غذته الحربُ الباردة الثقافية والسياسية. وهذا في الوقت الذي سادت فيه في بلدانٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ رئيسيةٍ أنظمةٌ أمنيةٌ وعسكريةٌ اصطفّت على حفافي الحرب الباردة، وتحت لواء الهيمنة. فكان من وراء ذلك تحطُّمٌ لمناعة التقليد في الدين، مثلما تحطمت ترتيبات العيش الاجتماعي والسياسي، وإلى جانب الجهاديات، ظهرت واستعلت أفكار ونزعات وممارسات الدولة الدينية عند السنة والشيعة.

في الدراسة الثانية عن تحويلات النص السياسي الكلاسيكي للخلافة تتبعْتُ التطورين الهائلين في فقه الدين: تطور فكرة تطبيق الشريعة، وتحولها إلى اعتقاد في أذهان فئات من المتدينين كهولاً وشبانًا. والتطور الثاني: ضرورة إقامة الدولة الإسلامية (تحت اسم الخلافة) من أجل إعادة الشرعية للمجتمع والدولة بتطبيق الشريعة. وهكذا صارت إقامةُ الدولة ركنًا من أركان الدين باعتبار الوظيفة المستجدة لها وما لا يتمُّ الواجب إلاّ به فهو واجب!

عندما كان الماوردي (-٤٥٠ هـ) يحاول الحفاظ على الخلافة ولو شكلاً، كان يرى أنّ شأنها شأن أي سلطة: إدارة الشأن العام. وقد ذكر أصول إدارة الشأن أو سياسة الدنيا في عشرة بنود. ومع أنه أعطاها وظيفةً أُخرى هي حراسةُ الدين؛ فقد كان حريصًا على تحديد الحراسة بأنها «حفظ الدين على ثوابته المستقرة، وأعرافه الجامعة». وثوابت الدين معروفةٌ في العقيدة والعبادات والأحكام والأخلاق. لكنْ ما خطر بباله ولا حتّى ببال السلطان عبد الحميد بعد ألف عام، أنّ الدولة تصبح مهمتها ليس إدارة الشأن العام؛ بل فرض الشريعة على المجتمعات

التي غادرتْها، وتحتاج إلى أبي بكر البغدادي لتطبيقها بالقوة السلطوية! وقد ختمتُ المقالة بأنّ هذه الأفكار هي انشقاقٌ في الدين، حوَّل الإسلام إلى مشكلةٍ عالمية. ويكون علينا صَونًا للدين في أزمنة التغيير هذه، أن نعمل على التجديد الديني، لإخراج الدين من بطن الدولة، صونًا للدين والدولة معًا.

لقد رأى الأخ خالد عزب أن يجمع الدراستين، الأُولى المكتوبة عام ١٩٩٧، والثانية المكتوبة أواخر العام ٢٠١٤ وينشرهما في سلسلة مراصد التي تصدرها مكتبة الإسكندرية، فله الشكر والتقدير.

رضوان السيد

بيروت في ٦ مارس٢٠١٦

ذكر الطبري[١] في أحداث العام ٣٣ هـ عن سيف بن عمر الضبي خبر «المسيرين»، وهو جماعة من شبان الكوفة وكهولها من «وجوه أهل الأيام، وأهل القادسية، وقراء أهل الكوفة، والمتسمتين»[٢]. كانوا قد تشاجروا مع سعيد بن العاص - والي الكوفة من قبل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حول ملكية الصوافي (يعني ما كان يسري لآل كسرى على جانب الفرات الغربي مما يلي الكوفة)[٣]. إذ اتهموا سعيدًا وبعض المقربين منه بالعمل على استصفاء الأراضي التي كانت في ملكية التاج الكسروي؛ ثم صارت لديوان المقاتلة بعد الفتح لأنفسهم. فلما كثر اللجاج بين الطرفين، وخشي سعيد بن العاص أن تفلت الأمور من يده. كتب إلى أمير المؤمنين عثمان[٤] (وفي رواية سيف بن عمر أن الذين كتبوا هم أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم) فأمر بإخراجهم من المدينة، وتسييرهم إلى الشام إلى إمارة معاوية. ويمضي سيف قائلاً: إنهم كانوا بضعة عشر رجلاً[٥]، وإن معاوية أحسن إليهم؛ ثم وعظهم فقال لهم[٦]: «إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم[٧]. وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن؛

(١) محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ، **تاريخ الطبري**: **تاريخ الأمم والملوك**، مج. ١ (د.م.: دار المعارف، ١٩٦٧): ٢٩٠٧-٢٩١٤. وعنه، انظر: عبد الحميد ابن هبة الله بن أبي حديد، ت ٦٥٥ هـ، **شرح نهج البلاغة**، ط. ٢، مج. ٢ (د.م.: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦): ١٢٩ وما بعدها؛ مج. ٣: ٢١ وما بعدها؛ أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر الأشعري المالقي الأندلسي، ت ٧٤١ هـ، **التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان** (الدوحة، قطر: دار الثقافة، ١٩٦٥): ٤٦ وما بعدها. وهناك رواية للشعبي عن المسيرين، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٢١؛ علي بن الحسين أبو فرج الأصبهاني، ت ٣٥٦ هـ، **الأغاني**، مج. ١٢ (مصر: مطبعة التقدم، ١٩١٦): ١٤٠-١٤٢. وليس فيها حديث معاوية عن قريش رواية عمر بن شبة عن المدائني عن أبي مخنف، انظر: أحمد بن يحيى البلاذري، ت ٢٧٩ هـ، **أنساب الأشراف**، مج. ٤ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦): ٥٢٨-٥٣٦. وهناك رواية موجزة عن الموضوع للأموي، انظر: محمد بن سعد بن منيع البصري، ت ٢٣٠ هـ، الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط. ٢، مج. ٥ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨ هـ): ٢٠-٢١. وانظر تفصيلات أخرى في رسالتي للدكتوراه (بالألمانية)، انظر: رضوان السيد، **ثورة ابن الأشعث والقراء: دراسة في التاريخ الديني والاجتماعي للعصر الأموي المبكر** (رسالة دكتوراه، فرايبورغ، ١٩٧٨): ٢٩٣-٢٩٥.

(٢) رواية سيف بن عمر، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٠٨.

(٣) هذا في رواية سيف، انظر: المرجع السابق. وفي رواية الشعبي، انظر: المرجع السابق: ٢٩١٦. ورواية أبي مختلف، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٣٩-٤٠، أن الخلاف كان على السواد كله إذ قال سعيد بن العاص لجلسائه: «إنما هذت السواد بستان قريش»! ويبدو أن روايتي الشعبي وابني مخنف هما الأدق في هذا الموضع لقول معاوية بعد ذلك في رواية سيف، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩١٣. «إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة».

(٤) في رواية الشعبي، انظر: المرجع السابق.

(٥) لا يعدهم سيف. ويذكر الشعبي أنهم كانوا تسعة، انظر: المرجع السابق: ٢٩١٧. منهم: مالك الأشتر، وثابت بن قيس، وكميل بن زياد النخعي، وصعصعة ابن صوحان، انظر: أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ١٢: ١٤٢. من رواية الشعبي إضافة: عمرو بن زرارة وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، ويزيد ابن صوحان، وجندب بن عبد الله.

(٦) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٠٩-٢٩١١.

(٧) في إحدى نسخ الطبري: وحزتم مواريثهم.

عدتم أذلة كما كنتم. إن أئمتكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا[1] عن جنتكم. وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة». فلما قاطعه أحدهم حاملاً على قريش غضب معاوية – حسب رواية سيف – وقال موضحًا رؤيته لقريش، ودورها في الجاهلية والإسلام: «إن قريشًا لم تعز في جاهلية إلا بالله عز وجل. لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم؛ ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابًا، وأمخضهم أخطارًا، وأكملهم مروءة. ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضًا؛ إلا بالله الذي لا يستدل من أعز، ولا يوضع من رفع. فبوأهم حرمًا آمنًا ﴿**وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾. هل تعرفون عربًا أو عجمًا أو سوادًا أو حمرًا؛ إلا وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة إلا ما كان من قريش. فإنه لم يردهم أحدًا من الناس بكيد؛ إلا جعل الله خده الأسفل. حتى أراد أن يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الآخرة. فارتضى لذلك خير خلقه؛ ثم ارتضى له أصحابًا، فكان خيارهم قريشًا؛ ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم. ولا يصلح ذلك عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم. أفتراه لا يحوطهم وهو على دينه؛ وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينوكم؟». وفي رواية سيف أن معاوية أضاف – بغير سبب ظاهر في سياق الرواية[2]–: «إن رسول الله ﷺ كان معصومًا فولاني وأدخلني في أمره؛ ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولاني؛ ثم استخلف عمر رضي الله عنه فولاني؛ ثم استخلف عثمان رضي الله عنه فولاني. فلم آل لأحد منهم ولاية؛ إلا وهو راضٍ عني».

إن لاختلاف الروايات في الحادثة أسبابًا وتفاصيل. وانفراد سيف بن عمر بذكر كلام معاوية عن قريش وعن نفسه؛ يجعل من الصعب تصور صدور هذا الكلام عن معاوية بالذات في هذه الفترة قبل أن يقتل عثمان رضي الله عنه، ويتصدى معاوية للطلب بدمه. لكن هذا لا يعني أن المسائل المتصلة بالسلطة، وحق قريش فيها وضرورتها – ومَنْ مِن قريش أحق بالأمر – كل ذلك لم يكن موضع

(١) قرأها محمد أبو الفضل إبراهيم: فلا تشذوا. وهذه القطعة من الحديث في ترجمة صعصعة بن صوحان، انظر: علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي بن عساكر، ت ٥٧١ هـ، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ٦ (دمشق: المكتبة العربية، ١٩١١): ٤٢٦-٤٢٨.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ١٩١٣. في رواية سيف بن عمر. وفي رواية الشعبي، انظر: المرجع السابق: ٢٩١٩. أن صعصعة بن صوحان قال لمعاوية أثناء المحاورة: «إنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك!» فيبدو أن ما ورد في رواية سيف هو رد من جانب معاوية على قوله صعصعة في رواية الشعبي.

اعتبار، أو نظر في ثلاثينيات القرن الأول قبل ذلك منذ أسست الخلافة في السقيفة على أثر وفاة رسول الله ﷺ[1]. فالصورة التي يعرضها سيف على لسان معاوية للنبوة وقريش والخلافة، وضرورة الإمامة ودور العرب في العصر الجديد. كل تلك الأمور، كانت المواضيع الأكثر بحثًا ونقاشًا.

تعرض الكلمة المنسوبة لمعاوية ثلاثة أمور في سياق واحد. الأمر الأول: انفراد قريش بفضائل الأخلاق، وكريم المآثر من بين العرب في الجاهلية. والأمر الثاني: سبحانه اختيار العرب ليورثهم الأرض والسلطة والدعوة، واصطفاؤه قريشًا لحسن خلالها، ورعايته لها منذ القدم من أجل هذا الدور بالذات. فكان منهم النبي المصطفى ﷺ الذي أعز الله به قريشًا والعرب أجمعين. والأمر الثالث: ضرورة السلطة في الأمة بعد رسول الله؛ لتحقيق مقتضيات الوراثة في الأرض. متابعةً للدعوة وقيادة للأمة المصطفاة. ولن يتم ذلك؛ أي لن تستمر الأمة والدعوة، أو لن تستمر الوراثة العربية الإسلامية ما لم يكن هناك النظام والطاعة.

ولا ينفرد معاوية في الكلمة المنسوبة إليه بمعرفة الفضل لقريش. إذ تتضافر روايات كثيرة أن العرب عرفت لهم ذلك مذ جمعهم قصيّ في القرن الخامس الميلادي؛ ثم جاههم قوي واستحصد بين العرب بعد وقعة أبرهة عام الفيل، واصطناع الإيلاف[2].

ويذكر سفيان الثوري (-١٦١هـ)، ومالك بن أنس (-١٧٩هـ) أن أبا بكر احتج بما يشبه الكلام المنسوب لمعاوية - يوم السقيفة - فقال[3]: «لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش»، أو قال كما في رواية ابن اسحاق (-١٥٠هـ)[4]: «إن هذا الحي من قريش بمنزلة ليس بها غيرهم، وإن العرب لا تجتمع إلا على رجل منهم».

---

(١) قارن بكتابي: رضوان السيد، **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي** (د.م.: دار جداول، ٢٠١١): ٧٨-٩١.

(٢) للمقارنة، انظر: عبد الملك بن هشام، ت ٢١٣ هـ، **السيرة النبوية**، مج. ١ (د.م.: دار الكتاب العربي، ١٩٩٠): ١٣٠ وما بعدها؛ أبو الهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت ق. ٤ هـ، الأوائل (طنطا: دار البشير، ١٤٠٨ هـ): ١٨-٢٢.

Muhmmad Hamidullah, "Al-Ilaf ou les rapports économico-diplomatiques de La Mecque pré-islamique", *Mélanges/ Louis Massignon* 2 (1957): 293-311.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي، ت ٢٤١ هـ، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مج. ١ (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦): ٥٦.

(٤) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مج. ١٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ): ١٥٢.

وليس في المصادر التاريخية ما يشير إلى أن أبا بكر أو غيره من الصحابة استخدم آثارًا نبوية للتدليل على أحقية قريش بالأمر[١]. لكن سرعان ما انتشرت أحاديث متعددة الروايات والصيغ عن بعض الصحابة مرفوعة للرسول ﷺ؛ تجعل الأمر على قريش. ويمكن تصنيف هذه الآثار في أربع صيغ:

الصيغة الأولى: تؤكد ما ورد على لساني أبي بكر ومعاوية فيما أوردناه سابقًا؛ إذ تقول[٢]: «إن الناس تبع لقريش في هذا الشأن. مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».

والصيغة الثانية: تقرر ما يشبه أن يكون واقعًا فتذكر أن «الأئمة من قريش» تارة[٣]، وتجعل لذلك شروطًا طورًا فتتابع[٤]: «ما داموا إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا أقسطوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

والصيغة الثالثة: تجعل السلطة في قريش حتى تفنى قريش[٥]: «ما بقي في الناس اثنان».

والصيغة الرابعة: تدخل المجال الأيديولوجي أكثر محاولة للدفاع عن بني أمية فتذكر أنه[٦]: «لا يزال هذا الأمر عزيزًا منيفًا لا يضره من ناوأه؛ حتى تقوم الساعة إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش».

---

(١) السيد، **الأمة والجماعة والسلطة**: ٧٨-٨٢ .

(٢) عن أبي هريرة، انظر: أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، ت ٢٧٧ هـ، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١): ٣٨٤؛ أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، ت ٣١٦ هـ، **مسند أبي عوانة**، مج. ٤ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨): ٣٩٢. وعن جابر بن عبد الله، انظر: المرجع السابق. ولفظه: الناس تبع لقريش في الخير والشر. للمقارنة، انظر: أبو الحسين مسلم بن حجاج النيسابوري، ت ٢٦١ هـ، **صحيح مسلم**، مج. ٦ (القاهرة: دار الكتب العربية، ١٩٥٥): ٢. حيث ترد روايات للحديث بالصيغتين .

(٣) عن أبي برزة الأسلمي، انظر: ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ٤٢١.

(٤) عن أبي موسى الأشعري، انظر: المرجع السابق: ٣٩٦. وعن أبي برزة الأسلمي، انظر: المرجع السابق: ٤٢١.

(٥) أبو عوانة، **مسند أبي عوانة**، مج. ٤: ٣٩٣. بطريقين عن ابن عمر. وقارن بروايات للحديث عن ابن عمر وأبي هريرة، انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، ت ٢٥٦ هـ، **صحيح البخاري**، مج. ٤ (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢): ٣٨٥؛ مسلم، **صحيح مسلم**، مج. ٦: ٣؛ ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٨: ٣٠، ٢٨٤؛ مج. ١٥: ٤٢-٤٣.

(٦) عن جابر بن سمرة من خمسة وعشرين طريقًا، انظر: أبو عوانة، **مسند أبي عوانة**، مج. ٤: ٣٩٤-٤٠١؛ مسلم، **صحيح مسلم**، مج. ٦: ٣-٤؛ أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، ت ٢٢٨ هـ، **الفتن** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٣)؛ محمد بن عيسى الترمذي، ت ٢٧٩ هـ، **الجامع الصحيح، وهو، سنن الترمذي**، مج. ٢ (مصر، ١٢٩٢ هـ): ٣٥.

إن رواة هذه الآثار في دواوين الحديث هم جماعة من الصحابة من بينهم أبو موسى الأشعري (حوالي ٥٠ هـ)، وأبو هريرة (-٧٥ هـ)، وابن عمر (-٧٢ هـ)، وجابر بن سمرة (-٧٤ هـ). لكن عمرو بن العاص (-٤٣ هـ) أسهم أيضًا في نشر فضل قريش وحقها في السلطة رغم التاريخ المبكر لموته. فعن عبد الله بن أبي الهذيل قال[١]: «كان ناس من ربيعة عند عمرو بن العاص فقال رجل من بكر بن وائل: لتنتهين قريش، أو ليجعلن الله هذا الأمر في جمهور من العرب غيرهم! فقال عمرو بن العاص: كذبت! سمعت رسول الله ﷺ يقول: قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة». وتذكر دواوين الحديث آثارًا رواها معاوية نفسه عن النبي ﷺ في ملك قريش.

ففي صحيح البخاري[٢]، ومسند أحمد[٣]؛ عن محمد بن جبير بن مطعم (ت. حوالي ٩٠ هـ): أنه كان عند معاوية في وفد من قريش عندما بلغ معاوية أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك في قحطان أو ملك من قحطان؛ فغضب معاوية وقام فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله ثم قال: أما بعد! فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ. أولئك جهالكم. فإياكم والأماني التي تضل أهلها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين» وفي أثر آخر عن رسول الله ﷺ رواه معاوية جاء[٤]: «الناس تَبَع لقريش في هذا الأمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام؛ إذا فقهوا».

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٥. للمقارنة، انظر: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني اللخمي الشامي، ت ٣٦٠ هـ، **المعجم الكبير**، مج. ١٩ (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٩٩٤): ٧٧٩، ٧٨٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مج. ٤: ٣٨٤-٣٨٥. للمقارنة، انظر: الطبراني، **المعجم الكبير**، مج. ١٩: ٧٧٩، ٧٨٠.

(٣) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ٩٤. للمقارنة، انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ١٢: ٢؛ أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري، ت ٢٨٠ هـ، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١ (د.م.: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦): ٤١٨، ٤٥١. أن الوافدين على معاوية كانوا : إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف، والمسور بن مخرمة، ومحمد بن جبير بن مطعم.

(٤) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ١٠١. والحديث مفيد لمعاوية في الرفع من شأن عراقة الجاهلية في مواجهة سابقة الإسلام . وفي أثر عن سعد بن أبي وقاص مرفوعًا: من يرد هوان قريش أهانه الله، انظر: الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج. ١: ٤٠١. وللحديث طرق أخرى عن غير معاوية، قارن بها، انظر: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي الحسني الصنعاني بن الوزير، ت ٨٤٠ هـ، **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**، مج. ٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤): ٢٠٦.

فإذا تابعنا البحث عن صورة معاوية، أو أوائل الأمويين عن الخلافة، أو الإمامة ودورها في الأمة؛ يقابلنا أثر آخر تذكره دواوين الحديث عن معاوية مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ وفيه[1]: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية». وهذه الفكرة فكرة ضرورة الإمامة أو السلطة لاستمرار الأمة واستمرار الإسلام ليست غريبة عن بيئات الإسلام الأولى أيضًا. فما تردد المهاجرون والأنصار لحظة واحدة في انتخاب إمام أو خليفة بعد رسول الله ﷺ. وهناك الكلمة المنسوبة لعمر بن الخطاب[2]: «يا معشر العُريب! الأرضَ الأرضَ! إنه لا إسلام إلّا بجماعة، ولا جماعة إلّا بإمارة، ولا إمارة إلّا بطاعة»؛ ثم هناك الكلمة المشهورة عن علي ردًّا على الخوارج الذين قالوا: إنه لا حكم إلا لله، إذ أجابهم علي[3]: «إنه لا حكم إلا الله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة! وإنه لا بدّ للناس من أمير بر، أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن. ويستمتع بها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو وتأمن به السبل، ويؤخذ فيه القوي من الضعيف؛ حتى يستريح بر ويستراح من فاجر». وأخيرًا هناك الأبيات الشعرية التي قالها الصحابي حنظلة الكاتب عند اضطراب الأمور على عثمان[4]:

عجبتُ لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافةَ أن تزولا
ولو زالت لزال الخيرُ عنهم ... ولاقوا بعدها شرًّا وبيلا
وكانوا كاليهود وكالنصارى ... سواءٌ كلهم ضلوا السبيلا

إن الحديث السالف الذكر عن معاوية يجعل انعدام الإمامة، أو البيعة حالة جاهلية. بينما يجعل حنظلة الكاتب ذلك ضلالاً كضلال اليهود والنصارى. وهاتان الحالتان المخوفتان - الجاهلية

(١) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ٩٦؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٣٥. أن الصحابي عبد الله بن عمير الأشجعي وقف في مسجد الكوفة عام ٣٤ هـ عندما ثار الناس على عثمان وكانت الفتنة فقال: أيها الناس! اسكتوا! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج وعلى الناس إمامًا - والله ما قال: عادل - ليشق عصاهم، ويفرق جماعتهم، فاقتلوه كائنًا من كان». وقارن بحديث معاوية، انظر: السيد، **الأمة والجماعة والسلطة**: ٧٨-٧٩.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن الداري السمرقندي، ت ٢٥٥ هـ، **سنن الدرامي**، مج. ١ (السعودية: دار المغني، ٢٠٠٠): ٧٩.

(٣) كلمة الإمام علي مع اختلافات طفيفة، انظر: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت ٢١١ هـ، **المصنف**، مج. ١ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣): ١٥٠؛ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ت ٢٨٦ هـ، **الكامل في اللغة والأدب**، مج. ٣ (القاهرة: المكتبة التجارية، د.ت.): ٢٠٦؛ أبو حديد، شرح نهج البلاغة، مج. ٢: ٣٠٧.

(٤) جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، ت ٧٤٢ هـ، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠). للمقارنة، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٣٠١٠-٣٠١١.

والضلال - تقتربان بنا من المفردين الأساسيين اللذين استخدمهما الأمويون في الدفاع عن سلطتهم أعني مفردي الجماعة، والسنة في مواجهة الفتنة، والبدعة.

لقد واجه معاوية تحديات ضخمة من الناحيتين الأيديولوجية والسياسية؛ لا تقارن بها خطورة ومصيرية التحديات التي واجهت عبد الملك بن مروان ومن بعده. ولم يكن ذلك لأنه مؤسس فقط؛ بل لأن السلطة الإسلامية السابقة عليه - سلطة الراشدين الأربعة أو الثلاثة في نظره - أسست على السابقة والقدم. «الإسلام المبكر وحضور معارك الجهاد الأولى فيما بين بدر والحديبية[١]». ومن أجل تجاوز هذه العقبة التي ذكر بها دائمًا سلك معاوية عدة سبل؛ فبعد ثبوت ضرورة الإمامة، وضرورتها في قريش. هناك سابقة من نوع ما له؛ فقد تقبل رسول الله ﷺ إسلامه المتأخر بقبول حسن وجعله بين كتابه، ومتَّ إليه بقرابة. إذ كان متزوجًا أخته أم حبيبة[٢]. ثم ولى لأبي بكر وعمر وعثمان فما غش ولا استأثر[٣]؛ وكانوا جميعًا منذ عهد رسول الله ﷺ، وحتى عثمان راضين عنه. لهذا فإنه عندما قام للطلب بدم عثمان، لم يقم بذلك لأنه قريبي فقط وولي دمه[٤]: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

(١) *Gernot Rotter, Die Umayyaden und der zweite Bürgerkrieg (680-692)* (n.p.: Deutsche Morgenländische Gesellschaft, 1982): 8-11; Tilman Nagel, *Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam: Vom Spätmittelalter bis zur Neuzeit* (n.p.: Artemis, 1981): 81-83؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٣٠٦٦-٣٠٦٩. أن الصحابة أتو عليًا عند مقتل عثمان فقالوا له: «إن هذا الرجل قتل ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدًا أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله ﷺ.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٧: ٤٠٦؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨ هـ، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣ (د.م.: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١): ١٢٢. عن ابن سعد عن الواقدي عن أبي بكر بن أبي سيرة عن عمر بن عبد الله العنسي، قال معاوية: لما كان عام الحديبية وصدوا رسول الله ﷺ عن البيت وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي فقالت: إياك أن تخالف أباك! فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية وإني مصدق به، ودخل مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم، وعلم أبو سفيان بإسلامي فقال لي يومًا: لكن أخوك خير منك وهو على ديني فقلت: لم آل نفسي خيرًا. وأظهرت إسلامي يوم الفتح فرحب بي النبي ﷺ وكتبت له. وقارن عن أم حبيبة وزواج النبي ﷺ بها، انظر: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المصري بن منظور، ت ٧١١ هـ، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، مج. ٦ (سوريا: دار الفكر، ١٩٨٤): ٣٩٩. وانظر عن معاوية قبل الفتح وإمكان إسلامه، انظر: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، ت ٢٣٦ هـ، **كتاب نسب قريش** (القاهرة: دار المعارف، د.ت.): ١٢٤.

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٨٧. وربما كان غرض حديث «المشيخة» من أهل الشام الذي يقول: «من أمر بمعروف ونهى عن منكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه، وخليفة رسول الله»، انظر: نعيم بن حماد، **الفتن**. إلغاء فضل السابقة والسابقين لصالح معاوية.

(٤) عن طلب معاوية بدم عثمان، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٣٠٨٩-٣٠٩٠، ٣٣٥٥-٣٣٥٦. وفي كتاب صفين ليحيى بن سليمان الجعفي (-٣٥٧هـ) أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى معاوية فقال له: أنت تنازع عليا أم أنت مثله؟! فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا وأنا ابن عمه والطالب بدمه؟! فأتوه فقولوا له فليدفع إلى قتلة عثمان وأسلم له. فأتوا عليًا فكلموه فلم يدفعهم إليه (للمقارنة، انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٤٩؛ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ت ٧٧٤ هـ، **البداية والنهاية**، مج. ٨ (د.م.: دار الهجر، ٢٠٠٣): ١٢٩).

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾[1]؛ بل لأنه صمم على الدفاع عن النظام الراشدي الذي أسهم هو في إنجاحه، والذي جعل منه بدوره شريفًا من أشراف الإسلام كما كان أبوه وجده بين أشراف الجاهلية[2].

إن السبق في الإسلام أعطى السابقين من المهاجرين والأنصار ميزات كثيرة؛ تقتضي المحافظة عليها الحفاظ على الإسلام، وعلى النظام الراشدي الذي تحققت لهم في ظله تلك المكاسب. لكن سلوك كبار أصحاب السابقة في الاضطرابات على عثمان أظهر تخليهم عن هذا النظام؛ بل وأظهر سعي كثيرين منهم وبخاصة بعض كبار الصحابة، وجمهور الأنصار إلى التخلي عنه ثم الائتمار به. لقد أنذرهم معاوية في الكلمة المنسوبة إليه - والسالفة الذكر - بأن الأئمة جنة لهم، وعليهم ألا ينزعوا الجنة. وتذكر المصادر كلمة لمعاوية قالها لعلي وطلحة والزبير إبان تأزم الأمور على عثمان؛ فيها[3]: «أيها المهاجرون! قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغمورًا في قومه تقطع الأمور من دونه؛ حتى بعث الله رسوله. فسبقتم إليه. وأبطأ عنه أهل الشرف والرئاسة؛ فسدتم بالسبق لا بغيره.. وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم! فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه؛ وإلا خرج منكم. ولا ينفعكم سبقكم، وهجرتكم».

ويبدو أن معاوية استخدم هذه الحجة أيضًا في الرد على المطالبين بالشورى، أو بترك الأمور شورى عندما أراد البيعة لابنه يزيد. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي واجه فيها تحديًا حقيقيًّا لسلطته طوال أيام خلافته. فقد طالب أثناء التحكيم عام ٣٨ هـعن طريق ممثله عمرو بن العاص بأمرين اثنين: تسليمه قتلة عثمان، وجعل الأمر شورى[4]. وكلا الأمرين موجه ضد الإمام علي؛ فقتلة عثمان في جيشه وبين ولاته ولن يسلمهم للقتل. وجعل الأمر شورى معناه الاعتراف بأن خلافه

(١) «سورة الإسراء»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٣.

(٢) كان معاوية شديد الاعتزاز بشرفه في قريش، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٤٢. أنه قال: «.... قد علمت قريش أني أشدها ثبات قدمين في بُعثط البطحاء».

(٣) الكلمة بروايتين عن رجاء بن حيوة وموسى بن طلحة، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٤٧-٢٩٤٨. ورواية موسى بن طلحة عن عمر بن شبة، انظر: العسكري، الأوائل، مج. ١: ٢٦٢-٢٦٣. وعن **الأوائل**، انظر: أبو حديد، **شرح نهج البلاغة**، مج. ١: ٣٢٩.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٣٣٥٥-٣٣٥٦.

علي حتى ذلك الحين غير شرعية. فلما قتل الإمارة علي عام ٤٠ هـ؛ بويع لمعاوية بالشام ومصر والحجاز - بخلافة أو إمارة المؤمنين - ثم بايعه العراقيون بعد تنازل الحسن بن علي عن السلطة[١]. ولم يطالبه أحد حينذاك بالشورى؛ فيما عدا قلة قليلة من المحكمة كانوا حينها ضد السلطة بشكل عام. وعادت المطالبة بالشورى بعد وفاة الإمام الحسن عام ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ، وتفكير معاوية بالبيعة لابنه. عندها عاد معاوية لتذكير متهميه بالهرقلية والكسروية[٢] بأنهم هم الذين قضوا على نظام الشورى بالسكوت على قتل عثمان، أو بالمشاركة فيه. ولذلك فقدوا حقهم في الشورى، وورث الأمويون السلطة من عثمان[٣]. لأنهم أولياء دم الإمام المظلوم:

عيشوا وأنتم من الدنيا على حذرٍ ... واستصلحوا جند أهل الشام للبهـــم
ولا لمن سألك الشـورى مشاورة ... إلا بطعـــنٍ وضـــرب صائب خذم
أنَّى تكون لهم شورى وقد قتلوا ... عثمان ضحوا به في أشهر الحـــرم[٤]

---

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، مج. ١٣: ٥٦؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٤٥. عن تاريخ ابن أبي خيثمة، قال ابن شوذب: سار الحسن يطلب الشام، وأقبل معاوية في أهل الشأن، فالتقوا فكره الحسن القتال وبايع معاوية على أن جعل له العهد بالخلافة من بعده. فكان أصحاب الحسن يقولون له: ياعار المؤمنين: العار خير من النار!

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مج. ٦٥: باب التفسير؛ العسكري، **الأوائل**، مج. ١: ٣٤٢-٣٤٣. وعنهما، انظر: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ت ٧٣٣ هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، مج. ٢٠ (د.م.: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤): ٣٥٢. أن الذي دعا إلى يزيد بن معاوية على المنبر بالمدينة كان مروان بن الحكم، وكان والي معاوية عليها، فقال «إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ودق عظمه، وخاف أن يأتيه أمر الله فيدع الناس حيارى كالغنم لا راعي لها فأحل أن يعلم علما، ويقيم إمامًا بعده .....»، انظر: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي، ت ٢٣٥ هـ، **مصنف بن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**، مج. ١١ (د.م.: دار التاج، ١٩٨٩): ٩٧؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت ٩١١ هـ، تاريخ الخلفاء (د.م.: نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٤): ٧٨. أن مروان قال بالمدينة: سنة أبي بكر الراشدة المهدية! فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: ليس بسنة أبي بكر وقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة والأصيل، وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب إذ رأى أنه أهل لذلك فبايعه! إنها سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل! فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: (والذي قال لوالديه أف لكما)»«سورة الأحقاف»، في القرآن الكريم: الآية ١٧. والوصف بالكسروية جاء في بيت شعر منسوب لابن همام السلولي، (انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٦؛ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت ٣٤٦ هـ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مج. ٥ (د.م.: دار الهجرة، ١٤٠٩ هـ): ٧١؛ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان قايماز الذهبي، ت ٧٤٨ هـ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، مج. ٣ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧): ٨٦).
إذا ما مات كسرى قام كسرى ... نعد ثلاثة متناسقينا

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٣٣٥٥؛ الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي، ت ٢٥٦ هـ، **الأخبار الموفقيات** (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٦): ٥١١؛ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي اليعقوبي، **تأريخ اليعقوبي**، مج. ٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي، د.ت.): ٢٦٦.

(٤) الشعر لعبد الله بن همام السلولي، انظر: الزبيري، **كتاب نسب قريش**: ١٢٣؛ محمد بن سلام الجمحي، ت ٢٣٢ هـ، **طبقات فحول الشعراء**، مج. ٢ (جدة: دار المدني، د.ت.): ٦٣٠-٦٣١. للمقارنة، انظر: همام بن غالب الفرزدق، ت ١١٠ هـ، **ديوان الفرزدق**، مج. ١ (د.م.: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣): ١٠٨، ٢١٩. حيث يحتج للأمويين بالحجة نفسها.

يقول الطبري في آخر أحداث العام ٤٠ هـ[١]: «وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء. حدثني بذلك موسى بن عبد الرحمن. حدثنا عثمان بن عبد الرحمن؛ قال: أخبرنا إسماعيل بن راشد، وكان قبل يدعى بالشام أميرًا».

فهل تعمد ذلك إظهارًا لانتقال مقر السلطة من الحجاز إلى الشام، من بقعة مقدسة إلى بقعة مقدسة أخرى؟! أم أن ذلك كان لأنه لم يرد آنذاك الذهاب للحجاز لاعتزامه المضي للعراق لقبول تنازل الحسن بن علي، وتقبل بيعة العراقيين؟! أيًّا كان الأمر فإن المصادر تحف بالإشارات إلى الشام باعتبارها الأرض المباركة، والأرض المقدسة المذكورة في القرآن[٢]. بل إن هناك آثارًا عن الرسول ﷺ أن الوحي أنزل عليه في ثلاثة أمكنة فقط[٣] - مكة والمدينة والشام - «فإذا خرجت من إحداهن! لم ترجع إلى يوم القيامة». وقد خرجت من مكة إلى المدينة أيام الرسول ﷺ، وخرجت من المدينة إلى الشام[٤] أيام معاوية. فلن تعود إلى المدينة. كما أنها لم تعد من قبل إلى مكة. ويروي المدائني عن عوانه بن الحكم الكلبي؛ أن معاوية اكتشف للشام فضائل أخرى هي بين أسباب بركتها، وقداستها، وخصوصيتها؛ إذ قال لخصمه القديم صعصعة بن صوحان عندما وفد عليه[٥]: «قدمت أرض المحشر والمنشر». ثم إن أرض الشام هي مناط تحقيق الوراثة الإلهية أو خلافه الله؛ بمقتضى ما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[٦]. إذ معنى ذلك أن

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ٥؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٥٠. عن يونس عن ابن شهاب قال: «لما بلغ معاوية هزيمة يوم الجمل وظهور علي، دعا أهل الشام للقتال معه على الشورى والطلب بدم عثمان - فبايعوه على ذلك أميرًا غير خليفة».

(٢) «سورة الإسراء»، في **القرآن الكريم**: الآية ١. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. «سورة الأعراف»، في **القرآن الكريم**: الآية ١٣٧.) ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾.

(٣) نعيم بن حماد، الفتن: ٢٧. وفي رواية عن يونس بن ميسرة بن حلبس (وهو محدث أموي الهوى، انظر: المرجع السابق. «هذا الأمر كائن بالمدينة (الراشدون)، ثم بالشام (معاوية والمروانيون)، ثم الجزيرة (مروان بن محمد)، ثم بالعراق (العباسيون)، ثم ببيت المقدس».

(٤) المرجع السابق: ٢٣. لكن الرواة احتاطوا للأمر (!) ففي رواية لحمزة عن ابن شوذب عن يحيى بن عمرو الشيباني قال: ليس من الخلفاء من لم يملك المسجدين، المسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس». فيخرج هذا الرأي عبد الله الزبير، ومروان بن الحكم من جملة الخلفاء! للمقارنة، انظر: المرجع السابق.

(٥) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٣٢، ٣٥٠، باب الآداب؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ٦: ٤٢٧. ولصعصعة قصص كثيرة مع معاوية، للمقارنة، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، مج. ٤: ١٠٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج. ٢: ٢٣٩؛ ابن عساكر، تهذيب **تاريخ دمشق الكبير**، مج. ٦: ٤٢٥؛ المسعودي، مج. ٥: ١٠٤-١٠٥.

(٦) «سورة النور»، في القرآن الكريم: الآية ٥٥.

الله سبحانه وتعالى أورث المسلمين أرض المشركين من العرب والعجم؛ فجعلهم ملوكها، وساستها كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل. إذ أهلك الجبابرة بالشام؛ وجعلهم ملوكها وسكانها[١]. ومن هنا يكون مفهومًا ما يرويه معاوية عن رسول الله ﷺ[٢]: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك». قال عمير بن هانئ؛ فقام مالك بن يخامر السكسي فقال: سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم بالشام! فقال معاوية: هذا مالك بن يخامر – به القسمة – يزعم أنه سمع معاذ بن جبل يقول: وهم بالشام!. وإذا كان أهل الشام مخصوصين بنزول الأرض المقدسة، وإنفاذ مهمة الوراثة الإلهية، والبقاء على الإسلام، والمرابطة، والجهاد بعد خراب الأمصار[٣]؛ فلا شك في نظر معاوية في الأثر الآخر الذي يرويه عن رسول الله ﷺ والذي يقول: «إن أهل الكتابين افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار؛ إلا واحدة وهي الجماعة. والجماعة بالشام[٤]».

تدعم هذا البنيان الأيديولوجي كله، أو تجعله بدون فائدة. حسب الوجهة التي ينظر فيها المتحزب إلى الأمر. مسألة المشيئة الإلهية؛ بل الإرادة الإلهية. ففي دواوين لحديث أن معاوية كان يكرر في كلامه وخطبه على المنابر بالشام والمدينة أثرًا يرفعه إلى رسول الله ﷺ في صيغة دعاء نصه[٥]: «اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت. ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وكذا كان يفعل عامله على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي (–٥٠هـ)[٦]. وقد كان معاوية شديد الاقتناع بأن الإرادة الإلهية، أو القدر وراء وصوله للسلطة؛ ففي رواية عنه[٧]: «ما تفرقت أمة قط؛ إلا أظهر الله أهل الباطل على أهل

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ، **جامع البيان في تفسير القرآن: تفسير الطبري**، مج. ١٨ (د.م.: دار هجر، ٢٠٠١): ١٥٨–١٦٠.

(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، مج. ١: ٥. للمقارنة، انظر: ابن الوزير، **العواصم والقواصم**، مج. ٣: ٢٠٧.

(٣) رضوان السيد، «الجهاد والجماعة: دراسة في دور علماء الشام في تكون مذهب أهل السنة»، **مجلة دراسات** ١٢ (١٩٨٥).

(٤) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ١٠٢.

(٥) المرجع السابق، مج. ٥: ٩٢–١٩٣. للمقارنة، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ٢١٢.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، مج. ٢:٣٢٥؛ Josef van Ess, *Zwischen Hadith und Theologie: Studien zum Entstehen prädestinatianischer Überlieferung*, Studien Zur Geschicte und Kultur des islamischen Orients N.F 7 (n.p., 1975): 81-84.

(٧) ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ٩٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٧٨.

الحق. إلا هذه الأمة». فهو ملك آتاه الله إياه كما ورد في كلمة أخرى له[١]. ويبدو أن هذا التصور لم يكن غريبًا لدى المعاصرين لمعاوية؛ إذ نجده في أثر يرويه عبد الرحمن بن أبي بكرة - وأبو بكر أخو ابن أبيه لأمه - عن رسول الله ﷺ[٢]: «خلافة نبوة؛ ثم يؤتي الله ملكه من يشاء». وفي رواية أخرى ضد معاوية والأمويين؛ يقول الأسود تلميذ ابن مسعود لأم المؤمنين عائشة[٣]: «إن رجلاً من الطلقاء يبايع له - يعني معاوية! فتقول عائشة: بني! لا تعجب! هو ملك الله يؤتيه من يشاء».

يقول هشام بن عمار (-٢٤٥ هـ)[٤]: نظرت في أحاديث معاوية عندكم؛ فوجدت أكثرها مصنوعاً! ومن قرأ ترجمة معاوية في تاريخ دمشق الكبير[٥]، والآثار الواردة لنصرة معاوية أو إدانته في أنساب الأشراف للبلاذري[٦]، أو تاريخ الطبري[٧]، أو كتاب الفتن والملاحم لنعيم بن حماد[٨]، أو سير أعلام النبلاء للذهبي[٩]، أو الفوائد المجموعة للشوكاني[١٠]، تحقق صدق قول هشام بن عمار. ففي رواية عن ابن أبي شيبة يقول معاوية[١١]: «أنا أول الملوك». وفي زهر الآداب يقول معاوية[١٢]: «نحن الزمان. من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع». وفي رواية للمدائني عن عبد الله بن سلم الفهري؛ قال معاوية يومًا[١٣]: «لقد

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ٢١٢.

(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن شداد الأزدي السجستناي، ت ٢٧٥ هـ، **سنن أبي داود**، مج. ٢ (د.م.: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩): ٢٦٣.

(٣) ابن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، مج. ١١: ٩٠-٩١؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ت ٣٤٠ هـ، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، مج. ٤ (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.): ٢٩٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، مج. ٨: ١٣١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مج. ٣: ١٤٣، نعيم بن حماد، **الفتن**: ٣٢. كلمة لابن مسعود في استحالة مقاومة «ملك مؤجل»، انظر: ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ١٣٣؛ علاء الدين على المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، ت ٩٧٥ ه، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ط. ٥، مج. ٦ (د.م.: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١): ٦٤. كلمة مماثلة لمحمد بن الخليفة في اعتزال الفتن، واستحالة إزالة (ملك المروانيين) المؤجل.

(٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٧٤

(٥) ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٦: ٣٣٤ وما بعدها. وقد عجب ابن كثير، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مج. ٨: ١٢٠. من إيراد ابن عساكر لأحاديث كثيرة موضوعة في ترجمته لمعاوية.

(٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ١٦٢-١٢٩

(٧) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ٢٠٥-٢١٧.

(٨) نعيم بن حماد، **الفتن**.

(٩) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٢٨-١٣١. للمقارنة، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مج. ٨: ١١٩-١٢٣.

(١٠) محمد بن علي الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ، **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة** (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.): ٤٠٣-٤٠٧.

(١١) عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ١٤٧؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٥٧. عن الزبير بن بكار. للمقارنة، انظر: النويري، **نهاية الأرب**، مج. ٣٠: ٣٧٢؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٢٤؛ أبو حديد، **شرح نهج البلاغة**، مج. ١: ٢٠١؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ٦: ١٠٦. أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية فحياه قائلاً: السلام عليك أيها الملك!.

(١٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ت ٤٥٣ هـ، **زهر الآداب وثمر الألباب**، مج. ١ (بيروت: دار الجيل، د.ت.): ٢٢٢.

(١٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ١١٧؛ المسعودي، **مروج الذهب**، مج. ٥: ٩٩.

أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة، وأنقذهم من النار، وأوجب لهم الجنة، وجعل أنصارهم أهل الشام». وعند ابن أبي شيبة أيضًا أن معاوية صلى الجمعة بالنخيلة قبل مقدمه إلى الكوفة من أجل أن يبايع له الناس؛ ثم خطبهم فقال[١]: «ما قاتلتكم لتصوموا، ولا لتصلوا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا. وقد أعرف أنكم تفعلون. إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون!».

لكن هناك روايات أخرى يبدو فيها الرجل متواضعًا، كثير الاهتمام بأمر الناس ورأيهم فيه وفي سياساته. ففي رواية عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن معاوية يقول[٢]: «ما قاتلت عليًّا إلا في أمر عثمان». وفي رواية أخرى عنه يقول[٣]: «إنّ عمر ولاني ما ولاني من الشام؛ ثم عثمان بعده. فما غششت، ولا استأثرت. ثم ولاني الله الأمر؛ فأحسنت وأسأت» ويقول قبل وفاته بقليل[٤]: «إني لزرع مستحصد. وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني. ولن يأتيكم بعدي؛ إلا من أنا خير منه .كما أن من كان قبلي كان خيرًا مني». ويقول[٥]: «إني رمتُ سيرة أبي بكر وعمر فلم أُطِقها. فسلكت طريقة لكم فيها حظ ونفع على بعض الأثرة. ولست بباسط يدي إلا إلى من بسط يده. فأما القول يشتفي به ذو غِمْرٍ؛ فهو دبر أذني، وتحت قدمي حتى يروم العوجاء». وعندما زاره وفد من كهول قريش بينهم المسور بن مخرمة، وكان يبلغه عن كلام فيه قال له[٦]: «ما فعل طعنك عليَّ؟ فماذا نقمت فيه عليّ؟ هل تعلمن أني أقاتل عدو المسلمين، وأجبي فيئهم، وأعنى بأمورهم، وأصل وافدهم؟ فقال: اللّٰهُمَّ نعم! قال: فنشدتك الله أتذنب؟ قال: نعم! قال: فما جعلك أحق برجاء المغفرة مني؟!».

---

(١) عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٩٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ١١٧. وقارن بمطلع الدراسة عن حديثه مع المسيرين.

(٤) المرجع السابق: ٤٥؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ٧: ٢١٢؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٢: ٣٢٣.

(٥) ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٦: ٣١٦. الرواية عن الشعبي وفيها أنه خطب بذلك أول مقدمه إلى المدينة «عام الجماعة»، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مج. ٥٨: ١٣٢؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٤٨-١٤٩. للمقارنة، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٤٩؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت ٣٢٨ هـ، **العقد الفريد**، مج. ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣): ٨١-٨٢؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**.

(٦) حديث معاوية مع المسور بروايات مختلفة، انظر: عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٣٤٤-٣٤٥؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٣٦، ٤٦؛ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت ٤٦٣ هـ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، مج. ٣ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢): ٤٠٢؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٥١.

يقول القاضي عبد الجبار بن أحمد في كتابه الغمني في أبواب التوحيد والعدل[١]: «ذكر شيخنا أبو علي رحمه الله أن أول من قال بالجبر وأظهرهُ معاوية. وأنه أظهر أن ما يأتيه بقضاء الله جعله إمامًا، وولاه الأمر. وفشا ذلك في ملوك بني أمية». ويحدثنا ابن أبي الحديد - وهو معتزلي شيعي - في شرح نهج البلاغة[٢] عن كفر معاوية عند المعتزلة والشيعة لجبريته وإرجائه، وارتكابه للكبائر. والكبائر مخرجة من الإيمان عند المعتزلة كما هو معروف. بَيْدَ أن أكثر الهجمات على معاوية شراسة ومن جانب رجل معاصر له؛ هجمة الحسن البصري (٢٢- ١١٠ هـ). إذ تنسب المصادر للحسن عبارة طويلة عدد فيها ما ارتكبه معاوية بحق الأمة في نظره. تقول الكلمة[٣]: «أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة منهم لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف؛ حتى أخذ الأمر عن غير مشورة. وفيهم بقايا الصحابة، وذوو الفضيلة. واستخلافه ابنه بعده سكّيرًا خمّيرًا يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير. وادعاؤه زيادًا؛ وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقتله حُجْرًا وأصحابه. فيا ويلًا له من حجر وأصحاب حجر!».

والحق أن أبلغ هذه التهم الاستماتة في استخلاف يزيد[٤]. وفيما عدا ذلك؛ فإن المؤرخين التمسوا له تأويلات مختلفة. وبخاصة فيما يتصل بولايته الأمر بعد مقتل عليّ. إذ لم يكن هناك مرشح غير الإمام الحسن بن علي؛ وقد تنازل عن ذلك لميل غالبية الناس إلى معاوية[٥]. وهكذا فإن تسمية

(١) أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، ت ٦٢٠هـ، **المغني** (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٦٨). وقارن بفضل الاعتزال، انظر: أحمد بن يحيى المهدي لدين الله بن المرتضى، ت ٨٤٠ هـ، **طبقات المعتزلة** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦١): ٨٧، ١٤٣-١٤٥.

(٢) أبو حديد، **شرح نهج البلاغة**، مج. ١: ٣٣٩-٣٢٦. وانظر عن رأي الشيعة في معاوية والأمويين بعامة:

E. Kohlberg, "Some Imami Shia Interpretations of Umayyad History", in *Studies on the First Century of Islamic Society*, edited by G.H.A. Juynboll, *Papers on Islamic History* 5 (Carbondale: Southern Illinois University Press, 1982): 152-168.

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٤٦. أبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن.

(٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٤٨؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت ٢٧٦ هـ، **عيون الأخبار**، مج. ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ): ٤٦. من كلمة لمعاوية: «..... ولولا هواي في يزيد لأبصرت قصدي»، انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج. ٥٨: ٥٥؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ٤٦٦-٤٦٧. عن أحمد أن عائشة سألت معاوية مستنكرة قتل حجر فقال: وجدت في قتله صلاح الناس، وخفت من فسادهم!.

(٥) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، ت ٢٨٢هـ، **الأخبار الطوال** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربي، ١٩٦٠): ٢٢٠. عن الحسن بن علي: « ..... إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح وكرهوا الحرب، فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون .....»، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٩٩. « .... ثم صالحه الحسن بن علي، وسلم له الأمر سنة إحدى وأربعين لخمس بقين من شهر ربيع الأول فبايع الناس جميعًا معاوية»، فقيل: «عام الجماعة»، انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٤٦ ....» سمي عام الجماعة لاجتماعهم على إمام ....»، انظر: أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ١٨٨. عن سعيد ابن عبد العزيز: «..... اجتمعت الأمة على معاوية سنة أربعين، وسموها عام الجماعة .....» قارن: ابن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، مج. ١١: ٩٥-٩٦.

الشاميين والمحدثيين للعام ٤٠ هـ عام الجماعة؛ لم تكن تسمية أيديولوجية فقط؛ بل وافقت واقعًا تاريخيًّا. يقول الضحاك بن قيس الفهري في رثائه[١]: «إن معاوية كان عود العرب، وحد العرب، وجد العرب. قطع الله به الفتنة، وفتح به البلاد». فقد كان عهده سلام واستقرار وفتوح ورخاء؛ فيما عدا حركات الخوارج المتفرقة. وكان يعلم أن الناس في كثرتهم معه. وهذا هو سبب استمراره في السلطة بعد وصوله إليها عن طريق البيعة[٢]. ويروي هذيل بن شرحبيل عنه قوله في إحدى خطبه[٣]: «أيها الناس إنكم فيما بايعتموني طائعين. ولو بايعتم عبدًا حبشيًّا مجدَّعًا لجئت حتى أبايعه معكم». لذلك يقول له الأحنف بن قيس (-٦٨هـ) في إحدى وفاداته عليه[٤]: «والله ما أتيناك - يا أمير المؤمنين - لتهدينا من ضلالة، ولا لتغنينا من عيلة، ولا لتمنعنا من ذلة. ولكن للسمع والطاعة».

إنه الولاء للمشروع الواحد هو الذي دفع الأحنف للسمع والطاعة له. وصنيع الأحنف هو صنيع أكثر الصحابة والتابعين؛ الذين عاصروا معاوية. يقول الأوزاعي (-١٥٧هـ)[٥]: «أدركت خلافة معاوية عدة أصحاب رسول الله ﷺ منهم: سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر ممن سميت بأضعاف مضاعفة. كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم. حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله. ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله؛ منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز. في أشباه لهم لم ينزعوا يدًا عن مجامعة في أمة محمد ﷺ».

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ١٥٥؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت ٢٢٥هـ، **البيان والتبيين**، مج. ٢ (د.م.: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨): ١٣١؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٠٢-١٠٣.

(٢) ثناء سعد بن أبي وقاص عليه، انظر: ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٦: ٣٦٣؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٥٠. وثناء عبد الله ابن عباس، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٤٨؛ عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٤٥٣؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ٢١٥؛ وثناء عبد الله ابن الزبير، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، مج. ٤: ٤٣؛ ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، مج. ١: ١١. وثناء عبد الملك بن مروان، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ١٢٣-١٢٤.

(٣) ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ٩٤ (وعنه، انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: ٧٨)، وفي تاريخ الطبري أن عبد الله بن عمر قال هذا القول لمعاوية عام ٥٦ هـ عندما طالبه بالبيعة ليزيد.

(٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٢٠.

(٥) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ١٨٩-١٩٠، ٣٠٨-٣٠٩.

هؤلاء الصحابة والتابعون؛ لم ينسوا لمعاوية رغم أخطائه التي رددها على المنابر أن الله قطع به الفتنة، وجمع به كلمة المسلمين. وكانت هذه أهم أسباب شرعيته. يقول سعيد بن عبد العزيز[1]: «لما قتل عثمان واختلف الناس؛ لم تكن للناس غازية، ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية سنة أربعين وسموها سنة الجماعة. فأغزى معاوية الصوائف، وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة تصيف بها، وتشتو. ثم تقفل وتدخل معقبتها. ثم أغزاهم معاوية ابنه يزيد في سنة خمس وخمسين في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ في البر والبحر؛ حتى جاز بهم الخليج، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها؛ ثم قفل».

عن ابن جريج (-١٥٠هـ) عن أبيه قال[2]: خطبنا عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير في العام الذي حج فيه سنة خمس وسبعين؛ فقال: «بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد. فلست بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا الخليفة المأفون. وإن من كان قبلي من الخلفاء؛ كانوا يأكلون، ويطعمون من هذه الأموال. ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف؛ حتى تستقيم لي. إنكم تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالهم. فلن تزدادوا إلا اجتراحًا، ولن تزدادوا إلا عقوبة؛ حتى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد - قرابته وموضعه - قال برأسه هكذا. فقلنا بأسيافنا هكذا. ألا وإنا نحتمل لكم كل شيء؛ إلا وثوبًا على منبر، أو نصب راية. ألا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي. والله لا يفعل أحد فعله؛ إلا جعلتها في عنقه. ثم لا أخرج نفسه إلا صعدًا. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله مقامي هذا؛ إلا ضربت عنقه».

---

(١) المرجع السابق: ١٨٨. وعنه، انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٥٠؛ أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ١٤: ٢٥٩. شعر لعبد الله بن الزبير الأسدي يذكر للأمويين والمروانيين بخاصة جمعهم للشمل، وتوحيدهم للكلمة: وما زلت مذ فارقت عثمان صاديًا ومروان ملتاحًا عن الماء أزورا
بهم جمع الشمل الشتيت وأصلح الإ له، وداوى الصدع حتى تجبرا
قضى الله لا ينفك منهم خليفة كريم يسوس الناس يركب منبرا

(٢) خطبة عبد الملك بهذه الصيغة، انظر: العسكري، **الأوائل**، مج. ١: ٣٦٢-٣٦٣. وعن الأوائل، انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: ٢١٨؛ أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ١٥: ١٦٦؛ ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٥: ٢٣٣؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مج. ٤: ٤٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، مج. ٩: ٦٢. قطع مختلفة من هذه الخطبة تذكر أنه ألقاه بمكة أو بالكوفة . وفي رواية الكلبي والهيثم بن عدي، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٣٥٢-٣٥٣. قطعة من الخطبة خاصة بعمرو بن سعيد وجامعته يقول الراويان: إنه ألقاها في مسجد الكوفة. وقارن: محمد ماهر حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية للعصر الأموي**: ٤٠-١٣٢هـ ٦٦١-٧٥٠م (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥): ٢٨٦-٢٩٠.

ويذكر البلاذري[١] عن أبي إسحاق؛ أن عبد الملك عندما أراد مغادرة الكوفة عام ٧٢ هـ - بعد مقتل مصعب بن الزبير، ومبايعة العراقيين له - خطب الناس؛ فعظم عليهم حق السلطان. وقال لهم: «هو ظل الله في الأرض». وحثهم على الطاعة، والجماعة.

وأيًّا ما تكن قيمة الروايات عن خطابة عبد الملك، وتاريخيتها؛ فالذي لا شك فيه أن هناك عناصر جديدة في رؤية السلطة، والذات، والآخر داخلت العالم السياسي، والأيديولوجي لبني مروان. فالمؤسس ابن الحكم بن أبي العاص؛ لم يكن صحابيًّا. فضلاً عن أن يكون من أهل السابقة والفضل. بل إن والده الحكم كان مدخول الإسلام، وقد نفاه النبي ﷺ إلى الطائف لأنه آذاه، ورده عثمان. فكان ذلك من أسباب الثورة عليه[٢]. صحيح أن بني مروان كانوا أقرب إلى عثمان من معاوية وكان بوسعهم الاستمرار في حمل راية الإمام المظلوم[٣]؛ لكن هذا أيضًا لم يعد سببًا كافيًا لقيام السلطة، واستمرارها. وقد كان وصول المروانيين للسلطة بعد موت يزيد بن معاوية، وابنه معاوية بن يزيد؛ سببه حرص أهل الشام - وبخاصة أهل الأردن وفلسطين وحوران - من اليمنيين على بقاء الخلافة بين ظهرانيهم لما استجد لهم منذ وليهم معاوية من جاه وثراء وسلطان. وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص قد صار شيخ الأمويين سنًّا وجاهًا بعد وفاة معاوية، ووفاة سعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر قبله. لذلك وقع عليه اختيار زعماء اليمانية بالجابية للخلافة[٤]. تلت تلك البيعة الأولى الضربة التي استطاع مروان توجيهها بواسطة اليمنيين للتحالف القيسي بمرج راهط عام ٦٥هـ؛ فاستقرت الشام بيده - باستثناء الجزيرة الفراتية -؛ ثم مد نفوذه إلى مصر بعد ذلك بقليل. وهذا ما كان عليه الوضع عند وفاة مروان أواخر العام نفسه. فقد كان على ابنه عبد الملك أن يستعيد الجزيرة والعراق، ومشرق العام الإسلامي ومغاربه من ظل النفوذ الزبيري. وقد استغرق ذلك منه زهاء السبع سنوات[٥].

---

(١) الرواية بطريق ابن سعد، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٣٥٤.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ٢٩٥١.

(٣) يوليوس فلهوزن، **تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٨): ١٠٢-١٠٣.

(٤) Rotter, *Die Umayyaden*: 37-59.

(٥) المرجع السابق: ٢٠٨ وما بعدها.

لذلك فإن إصرار عبد الملك على القول في الخطبة المنسوبة إليه بالمدينة أن القوة هي أساس سلطته؛ بل وسياسته. له ما يسوغه من مجريات الأحداث حتى ذلك الحين؛ وبخاصة فيما يتعلق بالحجاز والعراق اللذين استعاد الأمويون السيطرة عليهما أيام يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان بعد معارك ضارية.

إن توازن القوى القبلية - الذي كان لصالح اليمنيين في داخل الشام - هو سبب وصول الأمويين للسلطة أيام معاوية، وأيام مروان بن الحكم. لكنه ليس سبب استمرارهم. كما أنه ليس علة ذلك السلام الطويل الأمد داخل الأسرة الحاكمة، وداخل الدولة بين العامين ٧٢ هـ و١٢٥ هـ. فقد حرص عبد الملك بعد أن استقر الأمر على إشراك الجميع في السلطة من قيسيين، ويمنيين؛ بل وقرشيين[١]. فأعطى ذلك الأمويين تأييد أو مهادنة الغالبية العظمى من العرب. لكن قوة الشكيمة، وحسن السياسة لا تنفردان بالتأسيس والاستقرار. ثم إن ذلك لا يهب السلطة شرعية، أو عالمًا أيديولوجيًّا؛ يمكنها أن تضع نفسها في سياقه، وتعود الآخرين على النظر إليها من خلاله. وهذا هو معنى الكلمة المنسوبة إلى عبد الملك بن مروان في تعظيم حق السلطان، وفي أنه ظل الله في الأرض[٢]. فإذا كان التأكيد على الوصول للسلطة بالقوة عنصرًا جديدًا ومهمًّا في ماهية سلطة بني مروان؛ فإن تعظيم حق السلطان، والقول بأنه سلطان الله[٣]، وأنه ظل الله في الأرض ليس بالأمر الجيد عند الأمويين، وعند العرب المسلمين بشكل عام. وهذا وإن يكن المروانيون باعتبارهم أنفسهم خلفاء الله المكرمين بـخلافة الله؛ قد جعلوا هذه الرؤية القرآنية للأمة، والإسلام، والتاريخ؛ الدائرة الأيديولوجية الرئيسية التي يتحركون من خلالها.

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٣-٣٤٥.

(٢) انظر عن هذه الدعوى وتطوراتها: أبو حامد الغـــزالي، **التبر المسبـــوك في نصيحة الملـــوك**، تحقيق محمد أحمد دمج (د.م.: المؤسسة الجامعية، ١٩٨٧)؛ Ann K.S. Lambton, "The Theory of Kingship", in *Theory and Practice in Medieval Persian Government, Collected Studies Series* 122 (London: Variorum, 1980): 47-55, 128-129.

(٣) عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٣٤٤؛ (عن أحمد بن حنبل)، انظر: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت ٨٠٧ هـ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مج. ٥ (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤): ٢٢٢. عن حذيفة: ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض ليذلوه إلا أذلهم الله قبل أن يموتوا!

جاء في رواية لسيف بن عمر عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بروايته عن شيوخه عن عمر بن الخطاب؛ أنه استحث العرب يومًا بالمدينة على اللحاق بالمثنى بن حارثة لقتال الفرس بالسواد؛ فقال: «سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها؛ فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1]. والله مظهر دينه، ومعز ناصره، ومولِّ أهله مواريث الأمم». وفي رواية مقاربة عن الشعبي قبل يوم القادسية أن الوفد الذي أرسله سعد بن أبي وقاص للكلام مع قادة الفرس؛ قال لهم: «إنه كان من رسالة نبي العرب ﷺ[2]: استخلاف العرب، وتوريثهم الأرض. وإن الله ابتعثنا. والله جاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. وإن الله قد أورثنا أرضكم، وأبناءكم، وأموالكم[3]. وإن أدتنا الطاعة، وقتالنا الصبر. وسنضرب مثلكم؛ إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضًا، واختار لها الشجر والحب، وأجرى إليها الأنهار، وزينها بالقصور. وأقام فلاحين يسكنون قصورها، ويقومون على جناتها. فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب صاحب الأرض، وفي الجنان بمثل ذلك؛ فأطال نظرتهم. فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم. استعتبهم فكابروه. فدعا إليها غيرهم، وأخرجهم منها. فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس، وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم، ولا يملكون عليهم. فيسومونهم الخسف أبدًا[4]». وخطب سعد بن أبي وقاص يوم القادسية؛ فقال: «إن الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[5]. إن هذا ميراثكم، وموعود ربكم؛ وقد أباحها لكم».

ليس من غرضنا هنا التحقق من تاريخية هذه الأقوال في المواطن التي يقول سيف بن عمر إنها وردت فيها. لكن الواضح منها جميعًا أن هناك تصورًا معينًا ومألوفًا يقوم على أن العرب

(١) «سورة التوبة»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٣؛ «سورة الفتح»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٨؛ «سورة الصف»، في **القرآن الكريم**: الآية ٩. وبالآية نفسها استشهد قتيبة بن مسلم عام ٨٦ هـ لتشجيع جنوده على غزو أرض الترك، للمقارنة، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١١٧٩.

(٢) المرجع السابق، مج. ١: ٢٢٣٦-٢٢٤٥.

(٣) المرجع السابق: ٢٢٧١-٢٢٧٢.

(٤) المرجع السابق: ٢٢٨٤-٢٢٨٥.

(٥) المرجع السابق: ٢٢٨٩.

المسلمين - أمة النبي ﷺ - ورثوا مواريث الأمم السالفة؛ بمقتضى كونهم المسلمين، أتباع آخر الأنبياء، وحملة دعوته.

يقول الحسن البصري (-١١٠هـ)[١]: «أمتكم آخر الأمم. فلا أمة بعد أمتكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم». وترد في العبارات المنسوبة لعمر بن الخطاب، والفاتحين المسلمين مفردات ثلاثة لتحديد التصور المذكور كلها قرآنية: الاستخلاف، والتوريث، والوعد. أما المفرد الأول فيرد في القرآن زهاء أربع عشرة مرة[٢] بصيغ مختلفة يتصل منها بموضوعنا هنا مباشرة ثلاث آيات؛ أولها: قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣]. وثانيها؛ قوله تعالى:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤]. وثالثها؛ قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[٥]. أما الآية الأولى - وهي مكية - فتتضمن التصور كما فهمه المسلمون الأوائل. فالله سبحانه يتدخل في التاريخ والأحداث؛ فيهزم، أو يبيد عمار الأرض، أو المتسلطين فيها. ويستخلف فيها سكنًا وإعمارًا وإصلاحًا. أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعبدوا الله سبحانه دون أن يشركوا به شيئًا؛ كما في الآية الثانية. وما في الآية الثالثة عن داود النبي. وأن الله سبحانه جعله خليفة يربط الجانب الاجتماعي للاستخلاف بالجانب السياسي. إذ هناك آيات أخرى تذكر عن داود أنه كان ملكا[٦]. والصورة الكامنة وراء هذا كله أن الله سبحانه وتعالى استخلف قوم داود في الأرض اجتماعيًّا،

(١) ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، مج. ٢: ٣٤٤.
(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ([القاهرة]: دار الشعب، [١٩٤٥]): ٢٣٩-٢٤٠.
(٣) «سورة الأعراف»، **في القرآن الكريم**: **الآية ١٢٩**.
(٤) «سورة النور»، **في القرآن الكريم**: الآية ٥٥.
(٥) «سورة ص»، **في القرآن الكريم**: الآية ٢٦؛ «سورة البقرة»، **في القرآن الكريم**: الآية ٣٠. عن آدم: هـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
(٦) «سورة ص»، **في القرآن الكريم**: **الآية ٣٥**. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

وسياسيًّا بعد أن هزم عدوهم واستبدلهم به[1]؛ لينظر كيف يعملون. فلما بدلوا، وغيروا - كما هو مذكور في عدة مواطن من القرآن، وفي مطلع سورة الإسراء على الخصوص[2] - كانت رسالة عيسى الإصلاحية التي أباها بنو إسرائيل، واتبعها الروم. حتى إذا غيرت الروم، وبدلت. أورث الله سبحانه وتعالى العرب المسلمين النبوة والكتاب والأرض:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[3]. وفي الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ . وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[4].

إن هذه الصورة عن دور المسلمين في حقبة آخر النبيين وآخر الأمم؛ هي التي توضح معنى اللقب المشهور خليفة الله. فالأمة الإسلامية هي المستخلفة، والوارثة. وإمامها الذي يقودها لتحقيق الوراثة، ونشر الدعوة؛ هو خليفة الله في الأرض. استئناسًا بلقب النبيين آدم، وداود اللذين حملا هذا اللقب. ليس بسبب نبوتهما فقط؛ بل بسبب سيطرتهما، أو ملكهما أيضًا. كما هو واضح من الآيات القرآنية التي وعدها المتقون. وكذا الأمر في مفرد الوعد؛ فإنه كثيرًا في سياق الحديث عن جزاء المؤمنين والشهداء والصديقين والصالحين. فإذا تعلق الأمر بالاستخلاف، والتوريث، والتمكين في الأرض. أتى مفرد الوعد متوجًا لذلك، ومؤكدًا له. كما هو واضح من الآية المشهورة في سورة النور. والتي يرد فيها المفردان؛ ثم يفسرها الطبري فلا يستغنى عن مفرد التوريث. في الآية ٥٥: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[5]. وفي تفسير الطبري للآية [6]: «ليورثنهم أرض المشركين من العرب، والعجم؛ فيجعلهم ملوكها، وساستها. كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل».

---

(١) يرد مفرد «الاستبدال» بالصيغة الفعلية التي تعني إزالة ملك قوم لصالح آخرين خمس مرات في **القرآن**، انظر: «سورة الإنسان»، في **القرآن الكريم**: الآية ٢٨؛ «سورة الواقعة»، في **القرآن الكريم**: الآية ٦١؛ «سورة المعراج»، في **القرآن الكريم**: الآية ٤١؛ «سورة التوبة»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٩؛ «سورة محمد»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٨. وهو يتضمن دائمًا معنى الانتقام.

(٢) «سورة الإسراء»، في **القرآن الكريم**: الآية ١-٧.

(٣) «سورة الأنعام»، في **القرآن الكريم**: الآية ٨٩.

(٤) «سورة الجمعة»، في **القرآن الكريم**: الآية ٢-٣.

(٥) «سورة النور»، في **القرآن الكريم**: الآية ٥٥.

(٦) الطبري، **تفسير الطبري**، مج. ١٨: ١٥٨-١٥٩.

وصف أمير المؤمنين عثمان نفسه في رسالته إلى الحجيج مع ابن عباس بأنه خليفة الله؛ فقال[١]: «وأمّا أن أتبرأ من الإمارة. فلأن يكبوني أحب إليّ من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل، وخلافته». وبمقتضى هذا التصور الذي يجعل إمام المسلمين خليفة الله، وسلطان الله، وحبل الله. رأى عثمان في الرسالة المذكورة وجوب السمع، والطاعة، والجماعة له وعليه. ما دامت الأمة قد بايعته. وحذر من أنه إذا عصى، ونقض عهده والإيمان التي أعطيت له؛ فإن الأمة ستهلك[٢]: «ومتى ما تفعلوا ذلك. لا تقيموا الصلاة جميعًا. وسُلط عليكم عدوكم، ويستحل بعضكم حرم بعض». إنهم مستخلفون وهو خليفتهم الذي بايعوه؛ ليقودهم في الجهاد، ويؤمهم في الصلاة، ويقسم بينهم فيئهم. فإن عصوه، واختلفوا عليه، وافترقت كلمتهم؛ باءوا بغضب من الله. وكانوا جديرين بأن تستبدل بهم عصابة أخرى تعتصم بحبل الله، وتطيع سلطان الله، وترث الأرض.

أما أمير المؤمنين علي فيُذَكّر المبايعين بالمدينة في أول خطبة له بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾،[٣] ويتابع قائلاً في خطبة أخرى: «إنه سبحانه اختار الإسلام والأمة؛ ليسود دينه الأرض. ولن يكون ذلك إلا بالإجماع، والسمع، والطاعة لأئمة الله[٤]». وهو ما أوصى به المصريين في كتابه مع واليه قيس بن سعد بن عبادة[٥]. وقال في آخر خطبة له بالمدينة قبل مضيه إلى الكوفة[٦]: «إن في سلطان الله عصمة أمركم؛ فأعطوه طاعتكم غير ملوية، ولا مستكره بها.

(١) المرجع السابق، مج. ١: ٤٠٤٤؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٦٦؛ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، ت [٣١٤] هـ، **كتاب الفتوح**، مج. ٢ (د.م.: دار الأضواء، ١٩٩١): ٢١٧. أن عثمان قال للذين طالبوه بأن يخلع نفسه: لا أنزع سربالاً (أو قميصًا) سربلينه (أو قمصنيه أو كسانيه) الله تعالى. وقارن: ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ١٣: ١٥٦؛ مج. ٣: ٤٥؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٧٦. نسبة القول إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب قاله لعثمان.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ١٠٤٥-٣٠٤٤. وترد فكرة نزع الخلافة والجماعة من أهل المدينة لانتهاكهم حرمة عثمان في شعر لحميد بن ثور في الاستيعاب، انظر: ابن عبد البر، **الاستيعاب**، مج. ٣: ٨٣؛ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ، **الإصابة في تمييز الصحابة** (د.م.: المكتبة العصرية، ٢٠١٤):

إن الخلافة لما أطعنت ظعنت عن أهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا
صارت إلى أهلها منهم ووارثها لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا

(٣) «سورة الأنفال»، **في القرآن الكريم**: الآية ٢٦؛ الطبري، تاريخ الطبري، مج. ١: ٣٠٧٩.

(٤) المرجع السابق: ٣٠٨٠.

(٥) المرجع السابق: ٣٢٣٦-٣٢٣٧.

(٦) المرجع السابق: ٣٠٩٣.

والله لتفعلن، أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام؛ ثم لا ينقله إليكم أبدًا حتى يأرز الأمر». إن الأمة الوارثة في نظر أمير المؤمنين علي والصحابة تتكون من جماعة، ودار، وإمام. وإن اختلال أحد هذه العناصر كفيل بتفرقة الكلمة، وغضب الله، وفقد الاستخلاف، أو الاستبدال؛ كما حدث للأمم السالفة.

وفي المصادر، والخطب، والأشعار؛ يرد اللقب في عهدي معاوية ويزيد ابنه[١]. ويصبح واضحًا بين لقب أمير المؤمنين، ولقب الخليفة أو خليفة الله. فالأول داخلي، أو داخل. ينادي، ويخاطب به المسلمون إمامهم، أو أميرهم. والثاني يتصل بالدعوى العالمية للإسلام، وبوظيفة الأمة الجديدة في العالم. وقد أفلح عبد الملك بن مروان في إيضاح الفرق بين اللقبين، أو تكاملهما عندما ذكرهما معًا على نقوده التي عربها، وسكها بعد العام ٧٤ هـ. فالنقد يصور على أحد وجهيه الخليفة واقفًا واضعًا يده على مقبض سيفه المتدني باتجاه لقب خليفة الله، وعلى الجانب الآخر أمير المؤمنين[٢]. فما دام لقب الخليفة، والخلافة يتعلق بالاستخلاف في الأرض، واستيعاب أمة الدعوة التي تشمل العالم كله. لذا فإن تسميات الشعراء لعبد الملك ومن بعده: خليفة الله، وقدر الله، وأمين الله، وعمود الدين[٣]. كل ذلك لم يكن مبالغات شعرية؛ بل يتصل باللقب الرسمي لمنصب متولي الخلافة في الأمة المستخلفة في العالم، والوراثة للأرض. فقد وصف يزيد بن معاوية والده في أول خطبة له بعد وفاة معاوية؛ أنه كان حبل الله الممدود[٤]. وقال عبد الملك: «أنه ظل الله في الأرض[٥]»، وإن الله سبحانه اختاره وأسرته للخلافة، وهو سبحانه المدافع عنه. وسمي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) والده عبد الملك بن مروان

(١) انظر الشواهد التي جمعها: Patricia Crone and Martin Hinds, *God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam* (Cambridge, 1986): 6-7.

(٢) John Walker, *Catalogue of Muhammadan Coins in the British Museum* (London: British Museum, 1941-1956): 27-28, 30ff; Heinz Gaube, *Arabosasanidische Numismatik* (n.p.: Braunschweig, Klinkhardt & Biermann, 1973): 62-64.

(٣) قارن عن ذلك: الجاحظ، **البيان والتبيين، مج.** ٣: ٣٦١؛ أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ١٦: ١٨٣؛ مج. ١٧: ١٢؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢: ٥٧. وانظر مجموعة الشواهد التي أوردتها في: السيد، **ثورة ابن الأشعث والقراء**: ٣٤٤-٣٤٥. والآن المجموعة الكبيرة من الشواهد الواردة عند M. Hinds و P. Crone: Crone and Hinds. انظر: *God's Caliph*: 7-11.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، مج. ٢: ٢٣٨.

(٥) عن ابن سعد، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٥: ٣٥٤. للمقارنة، انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج. ٩: ٦٣-٦٤.

(٦٥-٨٦هـ): «ولي هذه الأمة»، وقال إنه: «صائر إلى منازل الأبرار. لما أقام من منار الإسلام وأعلامه»، ودعاهم بعد ذلك إلى السمع والطاعة له. وخطب خالد بن عبد الله القسري والي الوليد بن عبد الملك بمكة؛ فقال[١]: «عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة. فإني والله ما أوتي بأحد طعن على إمامه إلا صلبته في الحرم. إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها فسلموا، وأطيعوا. ولا تقولوا كيت، وكيت. والله لو أعلم أن الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة؛ لأخرجتها من الحرم». ويقول رجل لعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)[٢]: «لا والذي أكرمك بالخلافة!».

وما دامت الخلافة بهذا لامعنى، فلا عجب أن تعتبر اصطفاءً، وكرامةً، وقدرًا من الله سبحانه. وتروى عن الوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك في ذلك طرائف؛ مثل أن الله سبحانه لا يعاقب من ولاه الخلافة ثلاثة أيام[٣]. وأن الخليفة إذا أذنب فإن الله عز وجل يعذب مكانه يهوديًّا أو نصرانيًّا![٤]. وهذا الفهم الديني للإكرام بالخلافة يناظره الفهم الديني للبيعة[٥]؛ الذي وردت فيه آثار كثيرة مرفوعة للرسول ﷺ. يبدو أنها انتشرت أواخر القرن الأول الهجري[٦]. كل ذلك جعل من الطاعة واجبًا دينيًّا؛ لأن المعارضة: حنث بيمين البيعة، وتفرقة للكلمة، وسفك للدم، وتعطيل للجهاد الذي يوجهه ويقوده

(١) المرجع السابق: ٧٠.

(٢) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤٤٧. وفيه أن عمر استتر من السماء وقال للقائل: ويحك! تدري ما تقول؟!

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٢٣، ١٢٣٢. وهناك طرفة تنسب للحجاج ولخالد القسري، وتجري أيام الوليد بن عبد الملك أو هشام وفيها مقارنة بين «خليفة الله» و«ورسول الله» وأيهما أفضل (قارن بـ: المرجع السابق: ١٨١٨؛ أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ٢٢: ١٨؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج. ٩: ١٣١؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج. ٥: ٥١).

(٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢، قسم ١١؛ ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٣: ٥٥؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مج. ٤: ٦٠، ١٥٨؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مج. ١ (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت.): ٢١٨.

(٥) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٤: ٣٩١؛ أحمد بن مروان المالكي، **المجالسة وجواهر العلم** (د.م.، د.ت.): ٣٧٢؛ أبو العرب محمد بن أحمد، ت ٣٣٣ هـ، **كتاب المحن** (د.م.، د.ت.): ٢١٥.

(٦) مثل: «.... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ....» (انظر: الترمذي، **سنن الترمذي**، مج. ٢: ٢٥؛ عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٣٤١) ، ومثل: «.. يد الله مع الجماعة»، (انظر: الترمذي، سنن الترمذي، مج. ٢: ٢٥)، ومثل « ... من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية. ومن نكث العهد فمات ناكثًا لعهده جاء يوم القيامة لا حجة له»، انظر: عبد الرازق، **المصنف**، مج. ٢: ٤٧٩؛ ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٣: ٤٤٥. ومثل قول النبي ﷺ لأبي ذر من حديث: «.... اسمع وأطع وإن كان عبدًا أسود ....»، (انظر: عبد الرازق، **المصنف**، مج. ٢: ٣٨-٣٨٣)، ومثل ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا من حديث: «..... ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع ....»، انظر: ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ٥: ٥-٦. ومثل ما ورد عن حذيفة مرفوعًا من حديث: «.... إن رأيت خليفة فالزمه وإن أنهك ظهرك ضربًا، وأخذ مالك ...»، انظر: المرجع السابق، مج. ١٥: ٨. ومثل: «عليك السمع والطاعة في منشطك ومكرهك وأثره عليك ...»، انظر: أبو عوانة، **مسند أبي عوانة**، مج. ٤: ٤٥٥، ٤٥٩.

خليفة الله. يقول مروان بن محمد في رسالة منه للوليد بن يزيد (-١٢٥) بشأن الذين تكلموا فيه أيام هشام[١]: «فمن أقام منهم على الخطية أوبق نفسه، وأسخط ربه. ومن عدلت به التوبة نازعاً عن الباطل إلى الحق؛ وجد الله توابًا رحيمًا». وواضح من هذا التصور للعالم، والأمة، والخليفة؛ والذي يقوم على الطاعة، والجماعة. من أجل تحقيق تكليف الاستخلاف، والتوريث، وحماية الأمة، ونشر سيادتها في العالم، أنه لا يتصل مباشرة بالجبر، وليس دعوة إليه. صحيح أنه يتضمن تقديسًا للخليفة، لكنه في الحقيقة تبجيل للمنصب أو للخلافة. وبالتالي للأمة ودعوتها ورسالتها التي يقوم عليها الخليفة.

ومع ذلك فإن المعارضين من القدرية، والخوارج اعتبروا الصورة الأموية - عن الخلافة والطاعة - جبرية وطاغوتًا. ففي المصادر الحديثية أن معبدًا الجهني[٢]، وبعض رفاقه كانوا يأتون الحسن البصري؛ فيقولون له: «يا أبا سعيد! إن هؤلاء يأكلون أموال المسلمين، ويسفكون دماءهم. ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله! فكان الحسن يجيبهم: كذب أعداء الله». والمعروف أن عبد الملك بن مروان قتل، أو أمر بقتل معبد الجهني عام ٨٣ هـ. الذي يقال إنه أول نفاة القدر. لكنه قتله إثر ثورته مع عبد الرحمن الأشعث (٨٢ -٨٤ هـ)، وليس قبل ذلك. ورسالة الحسن البصري إلى عبد الملك بن مروان في القدر بناء على سؤال الخليفة له؛ ليست ذات طابع سياسي. بل تتصل بمسئولية الفرد عن أفعاله[٣]. وكذا رسالة الحسن بن محمد ابن الحنفية في «الرد على القدرية» هي رسالة ذات طابع كلامي؛ وليست لها علاقة واضحة بالاتجاهات السياسية الموالية، أو المعارضين للأمويين. وكان هشام بن عبد الملك قد أمر بقتل غيلان الدمشقي[٤]، ورفيقين له يقول المعتزلة أنهم كانوا قدرية[٥]. ولهؤلاء نقاشات

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٦: ١٨٥؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٠٨٦-١٠٨٧.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، ت ٢٥٦ هـ، **التاريخ الكبير**، مج. ٤ (الهند، ١٩٤٣): ٢٠-٢١. وعن معبد، انظر: J. van Ess, "Macbad al-Guhani", *Islamwissenschaftliche Abhandlungen* (1964): 50-57.

(٣) عن رسالة الحسن إلى عبد الملك، انظر:

H. Ritter, "Studien zur Geschichte der islamischen Frömmigkeit. I: Hasan al-Basri", *Der Islam* 21 (1933): 67ff; J. van Ess, *Anfaenge muslimischer Theologie: Zwei antiqadaritische Traktate aus dem ersten Jahrhundert der Hirga* (Orient-Institute Beirut, 1977).

إحسان عباس، **الحسن البصري: سيرته وتعاليمه وآراؤه** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٢): ١٦٤ وما بعدها.

(٤) جمع الأستاذ يوسف فان إس سيرة غيلان وأخبار مقتله في كتابه السالف الذكر في الملاحظة السابقة إلى جانب رسالة الحسن بن محمد ابن الحنفية في الرد على القدرية، والرسالة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز في الموضوع نفسه.

(٥) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٣٧١-٣٧٢؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢، قسم ٢: ٢٦١.

مع عمر بن عبد العزيز قبل ولاية هشام ذات طابع كلامي بحت. مما يدل على أن قتلهم كان بسبب الاعتقاد بأن رأيهم المستجد هذا إلحاد في الدين.

بل يبدو أن هشامًا فعل ذلك بضغط من علماء الشام آنذاك[١]. وقد يؤيد ما ذهبنا إليه هنا؛ إقدام والي هشام بالعراق خالد بن عبد الله القسري على قتل الجعد بن درهم. وهو جبري. لم يكن يعارض الأمويين؛ بل إنه كان معلمًا لآخر خلفائهم مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) في شبابه. فلا شك أن قتله أيضًا كان لسبب ديني لا لسبب سياسي. وهو اعتقادهم أنه أحدث بدعة في الدين بقوله بالجبر، والتأويل، وخلق القرآن.

ويبقى الجانب السياسي لمسألة القدر أحد جوانب المشكلة بالطبع. ولم يصبح فيما يبدو جانبًا رئيسًا أيام الأمويين أو بعدهم؛ بل ظلت مسألة القدر في الأعم مسألة دينية اعتقادية تثير نقاشات واسعة حتى مطالع القرن الرابع الهجري.

وما يهمنا هنا في مجال إيضاح الرؤية الأموية للخلافة ما ترتب على هذه الرؤية من ردود فعل تتصل بفكرة القدر[٢]. من ذلك فكرة «الملم المؤجل» التي عبر عنها محمد ابن الحنفية (-٨٠ هـ) في بيان عبث الثورة على الأمويين. هم يقولون إنهم جاؤوا بقدر من الله؛ للقيام على خلافة الله. والثوار الخائبون يعللون ذلك بتعليلات مشابهة. يقول محمد ابن الحنفية في رواية يحيى بن آدم بسنده عنه[٣]: «اتقوا هذه الفتن فإنه لا يستشرف إليها أحد إلا انتسفته! ألا إن هؤلاء القوم لهم أجل ومدة لو أجمع من في الأرض أن يزيلوا ملكهم لم يقدروا على ذلك؛ حتى يكون الله هو الذي يأذن فيه. أتستطيعون أن يزيلوا ملكهم لم يقدروا على ذلك؛ حتى يكون الله هو الذي يأذن فيه. أتستطيعون أن تزيلوا هذه الجبال؟!». وقد نجح الأمويون في ربط مبدأ الطاعة بمسألة الجماعة (أي الاجتماع على

(١) عبادة بن نسي ورجاء بن حيوة، انظر: أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٣٧٠. نمير بن أوس قاضي دمشق، انظر: المرجع السابق: ٣٧٣.

(٢) أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، ت ٢٨٠ هـ، **الرد على الجهمية**، تحقيق بدر بن عبد الله البدر (الكويت: الدار السلفية، ١٩٨٥)؛ G. Vajda, "Les Zindiqs en pays d'Islam", *RSO* 17 (1937): 159-181.

(٣) ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ١٣٣؛ المتقي، **كنز العمال**، مج. ٦: ٦٤.

الإمام)، والجهاد لحماية دار الإسلام، ونشر الدعوة، وحقن دماء المسلمين. فصارت المعارضة المسلحة خروجًا على ذلك كله، وإرماءً في الفتنة التي قاسى المسلمون من شرورها أيام الصراع المسلح بين علي ومعاوية؛ ثم بين عبد الملك والزبيريين. والشاميون يترددون في الرواية عن محمد بن راشد؛ لأنه كان يرى الخروج على الأئمة[١]. والبصريون يروون عن عقبة بن عبد الغافر العوذي الذي قتل في الثورة مع ابن الأشعث؛ أنه قال قبل الموت[٢]: «أضعنا الدنيا والآخرة». كما يروون عن طلحة ابن مصرف (-١١٣هـ) الذي شارك في ثورة ابن الأشعث قوله [٣]: «شهدت دير الجماجم فما ضربت بسيف، ولا طعنت برمح. ولوددت أن يدي قطعتا، وأنني لم أخرج مع من خرج». ويقول مسلم بن يسار (-١٠٠هـ) الذي شارك في الثورة أيضًا ما قاله طلحة بن مصرف[٤]. ولا شك أن رجالًا معارضين من مثل معبد الجهني (-٨٣ هـ)، ومطرف بن عبد الله بن الشخير (-٨٦ هـ) ارتبطت لديهم المعارضة السياسية بنفي القدر بشكل ما[٥]. لكن آخرين ممن شاركوا في ثورات على الأمويين من مثل مسلم بن يسار كانوا يحملون على القدرية، ويعتبرون آراء هؤلاء مشابهة لآراء المجوس أو النصارى[٦].

لدينا من الحقبة الأموية الثانية (٩٦-١٣٢هـ) نصوص موثقة تمثل الرؤية الأموية المتكاملة لكلٍّ من خلافة الله، وإمارة المؤمنين. لكن الملاحظ أن التأكيد على أحد الجانبين كان يؤثر على الجانب الآخر، أو يؤدي إلى تجاهله تمامًا. مما دفع بعض الباحثين إلى اعتبارهما رؤيتين متباينتين، وليس رؤية واحدة متكاملة. ولكي يكون واضحًا ما نعينه. نذكر أن رؤية أو تصور «خلافة الله» ترد في نصين؛ أولهما: للوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الذي ولي الخلافة عام ١٢٥هـ، وقتل في تمرد لابن عمه عليه أواخر العام نفسه. ونصه - الذي احتفظ لنا به من بين المؤرخين أبو جعفر

(١) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤٠١.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٧: ١٦٤؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٣: ٣٨٤.

(٣) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٥٤٨؛ أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، ت ٢٤٠ هـ، **تاريخ خليفة بن خياط**، ط. ٢، مج. ١ (دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ هـ): ٢٨٧.

(٤) عبد الرازق، **المصنف**، مج. ١١: ٣٦١؛ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي، ت ٣٥٤ هـ، **كتاب الثقات** (د.م.: دار الفكر، ١٩٧٥): ٣٤٣.

(٥) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٧: ١٦٤؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٣: ٣٨٤.

(٦) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي، ت ٢٤١ هـ، **علل الحديث ومعرفة الرجال**، مج. ١ (د.م.: دار الخاني، ٢٠٠١): ١٧٥.

محمد بن جرير الطبري (-٣١٠هـ) فقط[١] - هو رسالة وجهها إلى الأمصار تتضمن استخلافه لابنيه الحكم وعثمان على التوالي بعد وفاته. وثاني النصين: رسالة لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم والي الجزيرة والثغور أيام الوليد بن يزيد؛ والذي بويع بالخلافة عام ١٢٧هـ. والرسالة موجهة من مروان بن محمد للوليد بن يزيد[٢]. أما النصان اللذان يمثلان رؤية «إمارة المؤمنين»؛ فهما خطبتان. إحداهما لعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، والأخرى ليزيد بن الوليد (-١٢٦هـ) ألقاها بعد مقتل الوليد بن يزيد ومبايعته الناس له بالخلافة[٣].

يقول الوليد بن يزيد في مطلع رسالته، أو في قسمها الأول إن الله سبحانه[٤]: «اختار الإسلام دينًا لنفسه؛ ثم اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس. فبعثهم به». وامتد خط النور والهداية عبر التاريخ - تاريخ الخلاص والنجاة - من خلال الأنبياء وأممهم؛ حتى انتهت كرامة الله في نبوته إلى محمد ﷺ. وهنا يتوقف الوليد طويلاً عند مهمة النبي؛ مؤكدًا على استيعابه لكل الرسالات السابقة وهيمنته عليها. أي إنه ورث النبوة والكتاب والأرض، وأورثها أمته من بعده لأنه آخر الأنبياء، وأمته آخر الأمم. وبعدها يبدأ دور خلفاء الله؛ الذين تزعموا الأمة في استخلافها في الأرض لإنفاذ حكمه، وإقامة سنته وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه؛ تأييدًا بهم لبلاده. لكن قبل الانصراف لتحديد ماهية الخلافة ومهماتها يحسن أن نتوقف قليلاً عند استطراد ذكره الوليد في القسم الثاني

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٧٥٦-١٧٦٥؛ أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، مج. ٢ (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.): ٤٤٨-٤٥٣؛ حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية للعصر الأموي**: ٤٩٨-٥٠٠؛ حسين عطوان، **الأمويون والخلافة** (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦): ٢١١-٢١٤. وقارن بتحليل لهذا النص يختلف عن تحليل مراجعي المستشرقين:
Wadad Al-Qadi, "The Religious Foundation of Late Umayyad Ideology and Practice", in *Saber religioso y poder politico en el Islam: Actas del simposio international, Granada, 15-18 October 1991*, edited by Manuela Marin and Mercedes García-Arenal (Madrid: Agencia Española de Cooperacion Internacional, 1994): 231-273.

(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢: ٣١٧؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٧٢٥-١٧٣٥. وهناك نص آخر هو رسالة من مروان بن محمد إلى الغمر بن يزيد بن عبد الملك، انظر: المرجع السابق: ١٨٥٠-١٨٥١. يستحثه فيها على الطلب بدم أخيه بعد أن قتله الثوار.

(٣) خطبة عمر بن عبد العزيز، انظر: أبو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ت ٢١٤ هـ، **سيرة عمر بن عبد العزيز** (د.م.: عالم الكتب، ١٩٤٨): ٤١-٤٢؛ محمد بن الحسين الآجري أبو بكر، ت ٣٦٠ هـ، **أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز** رحمه الله وسيرته، ط. ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠): ٦٣. وخطبة يزيد بن الوليد، انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٨٣٤-١٨٣٦؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مج. ٤: ٩٥-٩٦؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢: ٣٣٨.

(٤) Crone and Hinds, *God's Caliph*: 116-126.

من الرسالة. وهو يختص في الحقيقة بالقسم الأول؛ لأنه يتعلق بالصورة عن الكون، وموقع الإسلام منه. يقوم نظام الكون في نظر الوليد على الانتظام، والتسليم، والطاعة للخالق سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، وما دامت العناصر الطبيعية قد صارت الطاعة، وصار التسليم، وصار الإسلام لله سبحانه وتعالى جزءًا من طبيعتها. فإن المطلوب أن ينخرط الإنسان نفسه في هذا الانتظام الكوني بإسلام وجهه الله سبحانه عن طريق التسليم والطاعة له. وهذا معنى رسالة الرسول ﷺ. فقد حدده بوحي من الله عز وجل كيفية انضواء الإنسان في هذه الطاعة الكونية، وعهد لأمته من بعده بإنفاذ ذلك. والخلافة هي قائدة الأمة في هذا الشأن؛ وبذلك تقف على رأس العالم الإنساني تقوده بالوسائل التي حددتها رسالة الرسول ﷺ إلى الانضواء التام في ظلال الطاعة الكونية لله عز وجل.

إن معنى ذلك أن الطاعة للخلافة – وليس للخليفة – هي في الحقيقة طاعة لله عز وجل؛ فهو الذي استخلف خلفاءه على منهاج نبوته من أجل تحقيق هذه الأمة الكونية التي شرحها في مفهومه للكون. فمن أطاع الخلفاء الذين ينفذون شرع الله وشرعته في الدفع عن الحريم، والعدل بين العباد، وإصلاح البلاد؛ إنما أطاع في الحقيقة الله سبحانه. أما من عصاهم؛ فقد أضاع نصيبه من هذا الانتظام الكوني، والأجر الإلهي: «وعصى ربه، وخسر دنياه وآخرته. وكان ممن غلبت عليهم الشقوة» ذلك أن الله سبحانه أبقى بالخلافة من أبقى في الأرض من عباده. والخلافة لا تصلح إلا بالطاعة التي يحفظ الله بها حقه، ويمضي بها أمره. والواضح أن الوليد بن يزيد هنا يعتمد على الاشتراك بين الاستخلاف الإلهي للبشر في الأرض كما هو وارد في القرآن، والخلافة التي تعني الزعامة السياسية للمسلمين. ويمكن فهم الأمر على أحد الوجهين؛ إما أنه يعتبر نفسه خليفة الله على البشرية المستخلفة في الأرض. لأن الرسول وأمته التي تزعمها الوليد ورثوا الأرض. أو أنه يقتصر على المماثلة؛ فكما أن الله سبحانه طلب إلى الملائكة الطاعة والتسليم له عندما اعترضوا على استخلاف البشر في الأرض قائلاً سبحانه:

(١) «سورة فصلت»، في **القرآن الكريم**: الآية ١١.

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]؛ فكذلك باعتباره الخليفة المبايع الواجب الطاعة في الأمة يطلب إليها أن تطيعه فيما هو بسبيله من تولية لابنيه من بعده رغم صغر سنيهما. ويبدو أن الأمرين مقصودان مع الاستمرار في الإيهام بالخلط بين الخلافة، والطاعة. لكنه عندما اضطر للإيضاح في عبارة طويلة في القسم الثاني صرح بأن المقصود بالطاعة الطاعة لله سبحانه وتعالى؛ فالدين كله يمكن تلخيصه بكلمتين كما قال: كلمة الإخلاص «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه**»، والطاعة لله سبحانه.

ثم يأتي القسم الثالث الخاص بولاية العهد؛ التي يسميها الوليد العهد. فالخلافة هي نظام الأمة، وقوام أمرها؛ بل إن الخليفة هو ولي عهد الله في أرضه. لذا فإن هذا النظام يتهدد إن لم يستمر لتبقى دماء الأمة محقونة، وألفتها ملتئمة، وكلمتها مجتمعة، وعمودها معتدل. ومن هنا كان عهد الخليفة لمن يلي الأمر من بعده محققًا لهذه الأغراض كلها، ففي استمرار السلطة الاستقرار والوحدة وبقاء كلمة الإسلام بالتالي عالية خفاقة. لكن الملاحظ أن المبدأ هنا لا يصبح ملكيًّا وراثيًّا. فولاية العهد أمر من اختصاص الخليفة، وكونه خليفة هو الذي يعطيه هذا الحق؛ بل يرتب عليه هذا الواجب للأمة في نظر الوليد. فليس من حق أحد أن يرث السلطة أو يورثها؛ إنما الخليفة هو الذي يحدد من بعده. وقد يكون ابنه أو أخاه أو أي رجل آخر من الأمة كما يقول الوليد. ثم إن الملاحظ أن البيعة لا تلعب أي دور في الاستخلاف، أو حتى في تحقيقه في نظر الوليد؛ بل إن هذا الاستخلاف هو واجب على الخليفة وعلى الأمة على حد سواء من ضمن التصور الشامل السالف الذكر.

تأتي رؤية الوليد بن يزيد المتكاملة هذه مفاجأة بعد أن كانت الرؤى السابقة للخلافة والأمة مجزأة في أبيات شعرية، أو مسكوك نقدي، أو عبارة مهددة في خطاب عام. والمفاجئ فيها غرابتها في السياق الذي وردت فيه. فقد أوضحنا من قبل اعتقاد المسلمين استنادًا لنصوص قرآنية، ومأثورات، وراثتهم للنبوة والكتاب والإمامة والأرض. لكن الغريب هنا أن هذه الوراثة تتحول عند الوليد إلى استخلاف كوني تذوب فيه الأمة؛ بل والعالم في شخص الخليفة. ويتحول الأمر كله إلى إسلام

(١) «سورة البقرة»، في **القرآن الكريم**: الآية ٣٠.

واستسلام وطاعة باعتبارها جميعًا من مستلزمات النظام الكوني في طاعة الله. لكن الوليد بن يزيد على غرابة تصوره لم يكن منفردًا على ما يبدو بذلك؛ ففي رسالة لمروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد يبايعه فيها يقول له[1]: «بارك الله لأمير المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده». ثم يتابع: «وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى آزره بأكرم مناطق الخلافة؛ فقام بما أراه الله له أهلًا، ونهض مستقلاً بما حمل منها». لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد فولاية الولي للخلافة في نظر مروان بن محمد: «مثبتة في الزبر بالأجل المسمى، خصه الله بها على خلقه». وما دام الأمر كذلك فإن الذين وقفوا مع هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٤هـ) مطالبين بعزله عاصين لمخالفتهم ما قدر الله، وما جاء في زبره: «فمن أقام على تلك الخسيسة من الأمر أوبق نفسه، وأسخط ربه. ومن عدلته التوبة نازعًا عن الباطل إلى حق وجد الله توابًا رحيمًا».

وتأتي رؤية إمارة المؤمنين لدى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، ويزيد بن الوليد (١٢٦هـ) متجاهلة بشكل يكاد يكون تامًّا لأول وهلة خلافة الله. يقول عمر بن عبد العزيز في أول خطبة له بعد البيعة: «أيها الناس! إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب. فما أحل الله على لسانه نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة». (سن[2] رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله؛ ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالقها. فمن اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا).

أما البداية عند عمر الثاني، فإنها مثل البداية عند الوليد الثاني: النبوة والكتاب وضرورة اتباعهما. ثم هناك القناعة الظاهرة أن ما أحله الإسلام فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرمه فهو حرام إلى يوم القيامة. ويعني هذا ضمنًا أن الإسلام أول الأديان وآخرها، وأن أمته آخر الأمم.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ١٤٦؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٧٥٢-١٧٥٣.

(٢) ما بين الحاصرتين فقرة وردت قبل الخطبة، انظر: ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**: ٤١. وقد رأيت أنها جزء من الخطبة.

ومن هنا كان الاتباع هو المطلوب وليس الابتداع. ومكان الطاعة عند الوليد الثاني يأتي الاتباع عند عمر الثاني. لكنه اتباع يشمله هو أيضًا بل هو بالدرجة الأولى: «إنما أنا منفذ لست بمبتدع، ولكني متبع». ثم هو في مصالحة مع النفس والآخر وتاريخ الأمة. إنه جزء من السلطة الإسلامية التاريخية: «سن رسول الله وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله». فالسنة ليست اتباع الكتاب والرسول فقط؛ بل هي في المضيّ على ما مضت عليه السلطة الإسلامية قبل عمر الثاني. وإذا كان عمر بن عبد العزيز متبعًا لسنن من قبله أو ساعيًا لذلك؛ فإن هذه السنن معروفة، ويمكن لمن شاء أن يتحقق من مدى اتباعه. فهو ليس أفضل الناس، وهو مسئول أمامهم فإذا تأملنا نص إمارة المؤمنين هذا وجدنا أنه نص داخلي أو أنه موجه للجماعة الإسلامية، ويتضمن برنامجًا داخليًّا أو فلسفة للنهج الذي سيسير عليه عمر في الداخل. والمؤمنون الذين يتوجه إليهم عمر يريدون وضوحًا في الخطوط العامة لسياسته وهو يقدمها لهم بلغة واضحة. وهي وإن تجاهلت المسئوليات العالمية للإسلام والمسلمين، وموقعهم في خط النبوة والكتب والمواريث الإلهية؛ فإنها لا تتناقض معها، لكنها تقدم عليها المشكلات الداخلية للمسلمين التي يبدو أنها كانت قد تفاقمت مع انصراف ولاة الأمور السابقين إلى فرض الاستقرار ومحاولة حفظ هذا الاستقرار الداخلي بالتركيز على الواجبات العالمية أو الإسلامية للمسلمين وخلافتهم. فالمصطلحات/ المفاتيح عند عمر الثاني هي: السنن، والكتاب، والحلال والحرام، والاتباع والابتداع. وهي مصطلحات لا تتناقض ومصطلحات الوليد الثاني: الإسلام والنبوة، والطاعة والمعصية، وخلافة الله، والعهد. صحيح أن عمر بن عبد العزيز لم يذكر العهد والخلافة؛ لكنه اعتبر سلوك ولاة الأمر السابقين سننًا حقيقية بالاتباع. بل قبل هو نفسه أن يكون خليفة أو أميرًا للمؤمنين بعهد من سليمان بن عبد الملك، ولم يكن بحاجة للحديث عن العهد لمن بعده لأن سليمان نفسه عهد لعمر ومن بعده ليزيد بن عبد الملك[1]. وقد اعترف عمر بالعهد ليزيد بن عبد الملك من بعده؛ بدليل أنه لم يتعرض له، وقد وصل يزيد بن عبد الملك

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ت ٥٩٧ هـ، **مناقب عمر بن عبد العزيز** (د.م.: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤): ١٥٤. أن عمر الثاني قال: إنه كان سيستخلف إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص أو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق لو لم يستخلف سليمان بعد عمر ثم يزيد بن عبد الملك!!

(١٠١-١٠٥هـ) للسلطة بعد عمر الثاني فعلًا. وقد تجاهل عمر الثاني في خطبته الأولى الواجبات العالمية للمسلمين تجاه الإسلام بالدعوة والجهاد؛ لكنه لم يكن يريد تحويل الأمة إلى جماعة دينية صغيرة؛ بدليل أنه أكد مسألة الوراثة والاستخلاف والتمكين في خطب أخرى له. لكنه اعتبر الاستخلاف وعدًا غير أبدي ولا أزلي كما فعل الوليد الثاني: «إن الله سبحانه أنجز ما وعد به المسلمين». فإن لم يقم المسلمون من جانبهم بما عليهم من رعاية حقوق الله في أنفسهم، وفي عباد الله؛ فإن الله سبحانه يغير ما بهم، أو أن وعيده سيتلو وعده: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[1]. انصرف عمر للقيام بمهام إمارة المؤمنين مؤجلًا الواجبات التاريخية، أو المهام الخارجية إلى حين. فأقفل الجند المحاصرون للقسطنطينية بعد أن منوا بعدة هزائم، وأجرى مصالحات داخلية مع الخوارج والشيعة، وضبط موارد ومصارف الأسرة الأموية بعد أن استفحلت الخصومة بينهم وبين الناس، وأعاد النظر في مسائل الخراج والفيء لتنظيم موارد الدولة، واهتم بمسائل العدالة في الأمصار والولايات. فالفروق موجودة وواضحة بين خلافة الله المجاهدة؛ التي تعتبر نفسها هي الأمة، وهي المسئولة بالتالي عن العالم كله. وبين إمارة المؤمنين؛ التي تعتبر المسئولية مشتركة بين الأمة والإمام، والتي ترى أن الأمة لا تستطيع أن تقوم بمهام الوراثة العالمية إن لم تكن أمورها الداخلية منتظمة وموحدة. لكن هذه الفروق لا تصل إلى حد التناقض؛ بل تنطلق من رؤى متشابهة[2]. إنما الخلاف أو الفروق تكمن في الأولويات السياسية أو السلوكية، أو في الفهم لضرورات هذه الأولويات. يتحدث الوليد بن عبد الملك عن والده خليفة الله عبد الملك بن مروان؛ فيقول: «إنه حظي برضا ربه ولا شك. لما أقام من منار الإسلام وأعلامه، وحج البيت، وغزو هذه الثغور، وشن الغارات على أعداء الله».

(١) «سورة فصلت»، في **القرآن الكريم**: الآية ١٧؛ ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**: ٧٥.

(٢) المرجع السابق: ٥٤. أن عمر لم يكن يريد أن يسميه أحد خليفة الله. كما أن عمر لم يكن يعتقد أن الخلافة تعصم أو تنجي من الذنوب؛ قارن بـ: البلاذري، **أنساب الأشراف**: ١٤٥.

بذلك أشاد الوليد بن عبد الملك بواجب طقسي واحد قام به عبد الملك هو حج البيت. وحتى هذا الواجب الطقسي له معنى سياسي. أما بقية إنجازات عبد الملك فتقع في جانب خلافة الله؛ وليس في جانب إمارة المؤمنين أيضًا بقدر ما هي مهمة من مهام خليفة الله أو خلافة الله. فإذا رجعنا إلى عمر ابن عبد العزيز من خلال السير التي ألفت عنه؛ نجد أن الغالبية العظمى من أعماله ورسائله تنصب على محاولة إجراء التفصيلية بين المسلمين. لذلك فعندما رثاه مسلمة بن عبد الملك لم يجد غير القول: «يرحمك الله يا أمير المؤمنين! لقد ألنت منا قلوبًا قاسية، وزرعت في قلوب الناس لنا مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرًا[1]».

أما يزيد بن الوليد فقد وصل للسلطة في ظروف غير عادية على أثر ثورة قام بها انتهت بقتل خليفة الله الوليد بن يزيد (-١٢٥هـ)، ومبايعته هو بالسلطة. لقد دعا للشورى في مواجهة الوليد بن يزيد، كما قال في رسالته إلى أهل العراق[2]، لكنه قبل البيعة لنفسه عند مقتل الوليد بن يزيد وتجاهل دعوته السابقة. شأنه في ذلك شأن عبد الله بن الزبير (٦٥-٧٢هـ) قبل سبعين عامًا. ولأنه جاء بعد انقلاب، ولم يكن الجميع راضين؛ فإن منطقه في خطبته الأولى كان منطق الاسترضاء، والتواضع، والتقرب إلى الناس. وهناك من يقول: «إنه كان قدريًّا أو غيلانيًّا[3]، وإن ما قاله هو مقتضى العقيدة السياسية للقدرية». قال يزيد بن الوليد: «إنه ما ثار من أجل السلطة والملك والمال والدنيا».

«لكني خرجت غضبًا لله ورسوله ودينه؛ داعيًا إلى الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ. لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب لكل بدعة». ما أراده إذن إعادة الأمور إلى نصابها باتباع الكتاب والسنة. ومقتضى ذلك تجاه الأمة في نظره: عدم الإسراف في البنيان، وإنفاق موارد الناحية المعينة فيها، وعدم تجمير الجند في الثغور، وإجراء العدالة للضعفاء،

(١) ابن الجوزي، **مناقب عمر**: ١٥٥ .

(٢) عن رسالته إلى أهل العراق، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢: ١٤٨؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٨٤٣-١٨٤٥. وللرسالة ترجمة، انظر: Crone and Hinds, *God's Caliph*: 126-128.

(٣) للمقارنة، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٢: ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٨٢٨-١٨٣٢؛ J. van Ess, "Les Qadarites et la Gailanlya de Yazid III", *Studia Islamica* 31 (1970): 268ff.
وانظر قراءة مختلفة للقدرية في بلاد الشام في العصر الأموي.

وعدم ظلم أهل ذمة المسلمين، ودفع أعطيات الجند وأرزاقهم في أوقاتها المحددة. وكل هذه الالتزامات هي جزء من صيغة العقد بينه وبين الناس. فإن لم يفِ بذلك فلهم أن يستتيبوه؛ فإن لم يتب فإن العقد يعتبر لاغيًا لمخالفة أمير المؤمنين لشروطه. وعندها لا طاعة له لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وكان عمر بن عبد العزيز قد احتفظ لنفسه بحق الفتوى والقضاء إن لم تكن هناك سابقة من قرآن أو سنة[1]: «أما ما حدث من الأمور التي تبتلى الأئمة بها مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ؛ فإن والي المسلمين وإمام عامتهم. لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضي فيها دونه وعلى من دونه. رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى». أما يزيد بن الوليد فإنه لم يدع لنفسه شيئًا، وذكرنا بالخطبة المنسوبة لأبي بكر الصديق عندما بويع بالخلافة[2]: «إني وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ولا شك أن مضامين هذه الخطبة تتجاوز الفروق، والتأكيد على الأولويات بين خلافة الله وإمارة المؤمنين. إن مفهوم إمارة المؤمنين لدى يزيد بن الوليد هو مفهوم تعاقدي خالص بدليل على حق الأمة في عزله إن خالف شروط العقد، وهذا ما لا يتفق ومقتضيات خليفة الله، وخلافة الله. إنها خطبة ثورية حقًّا تريد العودة للأصول - إلى عهد أبي بكر بالذات - وهي المحاولة الإصلاحية الثانية في الحقبة الأموية الثانية بعد محاولة عمر بن عبد العزيز. لكنها كانت تدعي لنفسها جذرية أشد وأعمق. ففي رواية للمدائني أن قيسًا بن هانئ العبسي قال للخليفة بعد طلبه إلى الناس تجديد البيعة [3]: «يا أمير المؤمنين! اتق الله، ودم على ما أنت عليه. فما قام أحد مقامك من أهل بيتك إن قالوا: عمر بن عبد العزيز! فأنت أخذتها بحبل صالح، وإن عمر أخذها بحبل سوء». ويعني هذا أن يزيد بن الوليد وصل للسلطة عن طريق ثورة شعبية في لغتنا اليوم؛ بينما وصل عمر بن عبد العزيز

(١) ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**: ٧٤-٧٥.
(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ١٨٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، مج. ٢: ٣٧٤.
(٣) المرجع السابق، مج. ٢: ١٨٣٥-١٨٣٦.

بتولية من سبقه له. إن يزيد بن الوليد في نظر أنصاره من الغيلانية فريد بين أهل بيته من هذه الناحية؛ بل هو فريد في التاريخ الإسلامي السابق عليه كله ما عدا أبي بكر الصديق. فأبو بكر فقط ولاه الناس مباشرة دونما تعيين من أحد. لكن محاولة يزيد بن الوليد - شأن سائر المحاولات الجذرية- سرعان ما فقدت حماسها وبراءتها، وعين يزيد بن الوليد أخاه إبراهيم وليًّا للعهد مخالفًا بذلك مبادئه؛ ثم ما لبث هو نفسه أن توفي بعد مرض لم يمهله غير أيام فكانت ولايته ستة أشهر تقريبًا. ما تخلى يزيد بن الوليد إذن عن الصورة الأموية التقليدية للخلافة تمامًا. ويتبين ذلك من استخلافه لأخيه إبراهيم، ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان [1]؛ مثلما فعل خصمه الوليد بن يزيد تمامًا عندما استخلف ابنيه الحكم وعثمان من بعده. كما يتبين ذلك من الكتاب الذي وجهه يزيد بن الوليد إلى العراق مع واليه منصور بن جمهور[2]: «إن الله اختار الإسلام دينًا وطهره وارتضاه؛ فكان له حافظًا، ولأهله المقيمين حدوده وليًّا. فلم يكرم الله بالخلافة أحدًا يأخذ بأمر الله وينتهي إليه فيناوئه أحد، أو يحاول صرف ما حباه الله به إلا كان كيده الأوهن. فتناسخت خلفاء الله ولاة دينه. قاضين فيه بحكمه، متبعين فيه لكتابه؛ فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته بما تمت به النعم عليهم. قد رضي الله بهم حتى توفي هشام؛ ثم أفضى الأمر إلى عدو الله الوليد المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مسلم». هنا يقبل يزيد بن الوليد كل شيء من جديد. الخلافة كرامة من الله، والخلفاء خلفاء الله. وكان كل شيء على ما يرام إلى أن مات هشام وانحرف الوليد. والدليل على انحراف الوليد أن الله نصر يزيد عليه، ولو كان غير محق لما انتصر. والدليل على أن الأمور كانت رائعة قبل الوليد بن يزيد استمرار خلافة الله فنصره على الخصوم حتى وفاة هشام.

والحق أن هذه المحاولة الإصلاحية كانت ضيقة الحلقة. أنصارها الحقيقيون أهل المزة فقط؛ أما الآخرون فمشوا مع يزيد بن الوليد لأسباب شخصية أو قبلية. فلما قتل الوليد بن يزيد تحقق الغرض لثوار المصالح فانفضوا عن الثائر العقائدي يزيد بن الوليد؛ فماتت ثورته قبل أن يموت شخصه.

(١) المرجع السابق: ١٨٦٩-١٨٧٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف مج. ٢: ٣٣٩-٣٤٠؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ١: ١٨٤٣-١٨٤٥.

ويبدو أنه أحس بالغربة، وضآلة التأييد بعد قتل الوليد من جانب أسرته والقبائل؛ فحاول العودة إلى ما تعوده الناس. إذ استخلف كما استخلف السابقون، واعترف بكل خلفاء الله السابقين حتى وفاة هشام. لكن الاضطراب القبلي الذي أحدثه بالشام مقتل الوليد بن يزيد ظل يتفاعل أيام مروان ابن محمد ويحدث انقسامات رهيبة بين القيسية واليمنية؛ حتى انتهى الأمر بانحياز اليمنيين بالشام والعراق وخراسان إلى العباسيين؛ فسقط الأمويون. يذكر عمر بن شبة في رواية عن معاوية أنه قال لكبار بني أمية أواخر أيامه[١]: «لأخبرنكم عني يا بني أمية! لن يبرح هذا الأمر فيكم ما عظمتم ملوككم؛ فإذا تمناها كل امرئٍ منكم لنفسه، وثبت بنو عبد المطلب في أقطارها. وقال الناس: آل رسول الله! فكانت الخلافة فيكم كحجر المنجنيق يذهب أمامه ولا يرجع وراءه».

اتهم أبو حمزة الخارجي في خطبته المشهورة[٢] بني أمية بالتجبر والفسق، وأكل أموال المسلمين، والسلوك فيهم سلوك الكفار. وعدد خلفاءهم ومساوئهم؛ فلم يوفر غير عمر بن عبد العزيز. لكنه لم يكن الوحيد بين معارضي بني أمية في اتهام هؤلاء في دينهم وسياساتهم. فمنذ الصراع بين علي ومعاوية - قبل حوالي المائة عام - شاع القول القائل إن معاوية يقاتل للدنيا وعليها. واتهم القراء الذين ثاروا مع ابن الأشعث (٨٢-٨٤ هـ) الأمويين بالابتداع والإحداث، والتجبر في الدين، واغتصاب السلطة، وسفك دماء المسلمين بغير حق، وإماتة الصلاة، والاستئثار بالفيء[٣]. ولم تكن حال الأمويين مع الدارسين المحدثين خيرًا من ذلك، وإن اختلفت الأسباب. افتتح ذلك يوليوس فلهاوزن معتبرًا الدولة الأموية عربية، والأمويين سلاطين قوة سياسية ودنيا[٤]. وهذه الدنيوية بالذات؛ بالإضافة إلى العصبية العربية هما ما أشاد به لامنس H. Lammens في دراساته جميعًا عن الأمويين، والعهد الإسلامي الأول. رأى لامنس أن الأسرة الأموية كانت أشد الأسر القرشية عداءً للنبيّ والإسلام، ولم يسلموا إلا

(١) العسكري، **الأوائل**، مج. ١: ٣٤٤.

(٢) عن خطبة أبي حمزة الخارجي، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف** مج. ٢: ٣٧٥-٣٧٧؛ الجاحظ، **البيان والتبيين**، مج. ٢: ١٢٢-١٢٤؛ أبو فرج الأصبهاني، **الأغاني**، مج. ٢٣: ٢٤١-٢٤٣. وبين المصادر اختلافات في الرواية، وخلط بين كلامه بمكة وكلامه بالمدينة . للمقارنة، انظر: المرجع السابق، مج. ٢٠: ١٠٥-١٠٨. وهناك ترجمة إنجليزية لها، انظر: Crone and Hinds, *God's Caliph*: 129-132.

(٣) السيد، **ثورة ابن الأشعث والقراء**: ٣٤٠-٣٤٥.

(٤) Julius Wellhausen, *Das arabische Reich und sein sturz* (Berlin: Walter de Gruyter 1960): 123ff.

بعد أن اضطروا لذلك عند فتح مكة. وعندما وصلوا للسلطة بمساعدة العرب الشاميين - وبخاصة المسيحيون من بينهم من وجهة نظره - كانت لا تزال تحركهم العصبية القبلية، والعداء للقرشيين الآخرين الذين أسلموا مبكرًا، وقاتلوا الأمويين مع النبي ﷺ، وقتلوا بعض وجهائهم. لذلك سلكوا سلوكًا انتقاميًّا - باعتبارهم ضعفاء الإسلام - ضد المهاجرين والأنصار الأولين. وأسسوا دولة عربية شامية إن لم تصرح بالعداء للإسلام جهرًا؛ فقد عادته سرًّا على أي حال.(١)

والاهتمام بلقب خليفة الله قديم لدى الدارسين قدم الاهتمام بالدولة الأموية نفسها. وكان غولدزيهر Goldziher أول من بحث المسألة في مقالة مختصة؛ فتوصل إلى النتيجة التي توصل إليها المؤرخون المسلمون قديمًا؛ إذ قال إن معنى اللقب: خليفة رسول الله المثبت من الله(٢). لكن الدارسين بعده توصلوا إلى معنى اللقب: المستخلف من الله، أو المعين من الله(٣). والحق أن اللقب كما يظهر في النصوص التي عرضناها منذ أيام عبد الملك بن مروان على الأقل لا يسمح بغير هذا التأويل. وفي النصوص ما يشير إلى استعمال اللقب، أو إلى معرفته منذ أيام أبي بكر وعمر(٤). لكننا لا نملك ما يشير إلى معناه آنذاك، وإن كنت أرجح كما عرضت سابقًا أن معناه الاستخلاف في الأرض حسب الرؤية القرآنية لوراثة النبوة والكتاب والسلطة والأرض من جانب العرب المسلمين. وهناك ما يشير على أي حال إلى أن لقبي أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله قديمان أيضًا؛ بل يبدو أنهما أقدم من لقب خليفة الله؛ لأنهما بقيا إلى جانبه. ولو كان اللقب بمعناه الذي ذكرناه قد استعمل أولاً لما كانت هنا حاجة للقبين الآخرين. ولهذا بقي الآخران؛ وبخاصة لقب أمير المؤمنين. مع التأكيد

(١) Henri Lammens, *Études sur le règne du calife omaiyade Mo'awia* (Beyrouth, 1908); *L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan* (Beyrouth, 1927).

(٢) وقارن بمقالة ذات طابع لغوي، انظر: Ignác Goldziher, "Du sens propre des expressions ombre de Dieu, khalife de Dieu", D.S. Margoliouth, *Revue de l'histoire des religions* 35 (1897). "The Sense of the Title Kalifah", in *A Volume of Oriental Studies presented to E.G. Browne* (Cambridge: Cambridge University Press, 1922).

(٣) W.M. Watt, "God's Caliph: Quranic Interpretation and Umayyad Claims", in *Iran and Islam*, edited by C.E. Bosworth (Edinburgh, 1971); R. Paret, "Halifat Allah: Vicarius Dei", in *Mélanges d'islamologie*, edited by Pierre Salmon (Leiden, 1974); "Signification coranique du Halifa et d'autres dérives de la racine Halifa", *Studia Islamica* 31 (1970); Crone and Hinds, *God's Caliph*.

(٤) للمقارنة، انظر: أحمد بن علي بن سعيد الأموي المروزي، ت ٢٩٢ هـ، **مسند أبي بكر الصديق** (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت.): ٦٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج. ٥: ٢٤٨.

على استخدامه في مخاطبة خليفة الله من جانب رعاياه المسلمين. فقد جاء في بعض النصوص القول[١]: «خليفة الله في خليقته، ورسوله في أمته».

لكن الدارسين حاولوا أيضًا معرفة مصدر هذا اللقب، وحقيقة مضامينه؛ وبخاصة أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، وأن فكرة الشورى والطابع التعاقدي للسلطة - كلاهما - وهما مسألتان قديمتان في الإسلام. الأول تتناقضان ظاهرًا مع ما يوحيه لقب خليفة الله؛ فذهب تيّان[٢] إلى أن اللقب ذو أصول بيزنطية، وفارسية. ووافقه في Rudi Paret مع التأكيد على العناصر البيزنطية. بينما ذهب كلٌّ من Hinds و Crone إلى أن اللقب في الغالب ذو أصول سامرية يهودية؛ وبخاصة أن المسلمين يرجعون في ذلك إلى داود. كما ترجع السامرة التي يرد لديها لقب خليفة يهوه[٣]. لكن فكرة الاستخلاف في الأرض، والنبوة، والسلطة تنتشر في القرآن كله. ولا تقتصر على داود؛ بل إن المقصود بالخليفة في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٤] في نظر المفسرين المسلمين آدم نفسه. لذلك قال النووي إن اللقب قصر على آدم وداود، ولا يجوز إطلاقه على أحد غيرهما[٥]. إن هذه الرؤية القرآنية لمسألة الخلافة تهبها معنى دينيًّا، ومهمة رسالية في العالم. ولعل هذا هو معنى فكرة المهدية؛ والسبب الكامن وراء انتصار خلفاء الله من العباسيين الذين حملوا ألقابًا أخرى أيضًا تضيف إلى الطابع الديني للقب أبعادًا مهدية ونشورية؛ مثل: المنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد...إلخ. وهناك ما يدل على هذا المعنى للقب خليفة الله في عهد عثمان بن عفان؛ ففي الطبري، وتهذيب الكمال للمزي - كما ذكرنا سابقًا - أن الصحابي حنظلة الكاتب أنشد عندما رأى الثوار على عثمان بالمدينة[٦]:

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرجون الخلافة أن تــزولا
ولو زالت لــزال الخيــر عنهم ... ولا قواه بعده شــرًّا وبيلاً
وكانوا كاليهــود وكالنصــارى ... سواءً، كلهم ضلوا السبيلا

---

(١) Crone and Hinds, *God's Caliph*: 17.

(٢) Emile Tyan, *Institutions du droit public musulman*, vol. 1, *Le Califat* (n.p., 1954): 202, 439ff.

(٣) Crone and Hinds, *God's Caliph*: 114–115.

(٤) «سورة البقرة»، في القرآن الكريم: الآية ٣٠.

(٥) محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦ هـ، **فتاوى النووي** (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٦): ٣٨.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، مج. ١: ٣٠١٠-٣٠١١؛ المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، مج. ١: ٣٤٣.

ومع هذا كله؛ فإن تصور الوليد بن يزيد للخلافة كما عرضه بتلك اللغة الجدلية اللاهوتية الباردة يبقى غريبًا في البيئة العربية الإسلامية. لكن ليس هذا هو ما يهمنا الآن، ما يهم هو بحث غرض الأمويين بالذات من وراء اللقب. لقد فهمته باعتباره تصورًا أيديولوجيًّا كانت لدى المسلمين أكثر عناصره؛ فاستخدمه الأمويون لتثبيت سلطتهم، وتحويلها إلى مؤسسة. لكن هناك من يريد المقابلة بين خليفة الله، ورسول الله[١]. وإذا كان الباحثون السابقون قد استندوا في تقليلهم من شأن إسلام الأمويين إلى سلوك بعض خلفائهم المناقض لأحكام الدين؛ فإن هذه الدعوى الأخيرة تستند إلى رؤية شاملة لتاريخ الإسلام الأول كله ليس من شأننا هنا الخوض في تفاصيلها[٢].

لكن مؤداها فيما يتصل بموضوعنا أن الإسلام منذ دعوة الرسول إليه؛ ذو طابع تبشيري خلاصي غلاب. فإن الذين تولوا الأمر بعد رسول الله ﷺ - باستثناء أبي بكر الصديق، ولم أستطع أن أفهم استثناءهم له رغم جهدي البالغ - كان كل منهم يضع نفسه في موضع المخلص، أو المنقذ. أي يعتبر نفسه بداية لحقبة جديدة للمهدية، والخلاص، والرحمة، والأمن؛ وهذا هو معنى التأكيد على خلافة الله في نظرهم. وما دام الأمر كذلك فإنهم كانوا بالضرورة يصطدمون بالاتجاهات الأخرى؛ التي بدأت تظهر وتسود في أوساط العامة عن أحكام كتاب الله وتطبيقها، وعن سنة رسول الله الواجبة الاتباع. لكن ليس فيما أيدينا من نصوص المصادر ما يؤيد هذه الدعوة؛ إذ لم نجد ما يشير إلى أن أنصار الأمويين، أو بعض خلفائهم حاولوا اصطناع تقليد أموي خاص، أو دين بديل.

جاء في رواية عن أبي الدرداء (-٣٢هـ)[٣]: «ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا»؛ يعني معاوية. وفي رواية عند ابن عساكر أن معاوية كان يحرص على استدعاء سكان القرى المحيطة بدمشق لإقامة الجمعة داخل المصر؛ إذ كان من مذهبه أنه لا صلاة لمن يسمع الصوت إلا في المصر[٤]. وعندما جرت محاولة ثانية لاغتياله أثناء صلاته بالناس ببيت المقدس حرص على أن يتم الناس

(١) Crone and Hinds, *God's Caliph*: 43ff.

(٢) Patricia Crone and Michael Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge), 1977.

(٣) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١٣٥.

(٤) ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١: ١٢٤-١٢٥.

صلاتهم[١]. وروى الشافعي[٢]بسنده عن ابن عباس أنه رأى معاوية صلى العشاء؛ ثم أوتر بركعة واحدة لم يزد. فذكر كريب مولى ابن عباس ذلك له؛ فقال ابن عباس: «أصاب أي بني! ليس أحد منا أعلم من معاوية! هي واحدة، أو خمس، أو سبع، أو أكثر». وفي ابن عساكر يسنده إلى ابن سعد عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه؛ قالت[٣]: «قدم معاوية فأرسل إلى عائشة أنْ أرسلي إلـيَّ بأنبجانية رسول الله ﷺ، وشعره؛ فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت عليه. فأخذ الأنبجانية فلبسها، ودعا بماء فغسل الشعر فشربه وأفاض على جلده». وفي الصحاح عن معاوية بطريق ابن عباس أن معاوية لما احتضر قال[٤]: «إني كنت مع رسول الله ﷺ على الصفا، وإني دعوت بمشقصٍ فأخذت من شعره، وهو موضوع في كذا وكذا. فإذا أنا مت فخذوا ذلك الشعر فاحشوا به فمي ومنخري». والمعروف عن معاوية أنه كان شديد الاعتزاز باستقبال رسول الله ﷺ له، واستعماله كاتبًا عنده.

وفي ابن عساكر عن الليث عن بكير عن بسر بن سعيد[٥] أن سعد بن أبي وقاص قال: «ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب»؛ يعني معاوية. ولكنه لم يكن يقضي بنفسه في العادة؛ بل كان حريصًا على أن يكون قضاته بالشام بالذات من الصحابة. فبعد أبي الدرداء (-٣٣هـ)؛ الذي يقال إن عمر عينه. استقضى معاوية الصحابي الشامي الأنصاري المعروف فضالة بن عبيد (-٣٢هـ)؛ وقال له[٦]: «والله ما حابيتك بها، ولكني استترت بك من النار». وكان يستخلف فضالة[٧] على دمشق عندما يخرج منها. وقد شجع معاوية أبا الدرداء، وفضالة بن عبيد على إقراء القرآن بالشام[٨]، وعنهما انتشرت القراءة. ويقال إن معاوية استعمل بعد فضالة أنصاريًّا

(١) الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٤١٣.
(٢) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ت ٢٠٤ هـ، **مسند الإمام الشافعي**، مج. ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٥١): ١٠٨.
(٣) ابن عساكر، تهذيب **تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٦: ٣٦١.
(٤) البخاري، **صحيح البخاري**، مج. ٣: ٤٤٩؛ مسلم، صحيح مسلم: رقم ١٢٤٠.
(٥) ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٦: ٢٦٣
(٦) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ١٩٩؛ شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي، ت ٩٥٣ هـ، **الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام المعروف بقضاة دمشق** (د.م.، د.ت.): ٢.
(٧) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ١٩٩، ٢٢٣.
(٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مج. ٣: ١١٦.

آخر هو النعمان بن بشير الأنصاري (-٦٤هـ) وهو صحابي أيضًا[١]. واستعمل أخيرًا قبل وفاته بلال بن أبي الدرداء [٢]؛ الذي ظل قاضيًا حتى استقرار الأمور لعبد الملك بن مروان. ويذكر أبو زرعة الدمشقي[٣] بسنده عن مالك بن أنس (-١٧٩هـ): «سئل مالك بن أنس من أول من استقضى؟ فقال: معاوية! فقيل له: فعمر؟ فقال: لا! فقال له رجل من أهل العراق: أفرأيت شريحًا؟! فقال: كذلك يقولون! ثم قال: كيف يكون هذا يستقضي بالعراق، ولا يستقضي بغيره؟ ليس كما تقولون!». كان معاوية إذن حريصًا على مراعاة الشعائر بدقة؛ كما كان حريصًا على ربط نفسه في كل مناسبة برسول الله ﷺ. ومن هذا الباب استعماله لقضاة من الصحابة، ومن أهل المدينة أو المهاجرين إليها باعتبارهم أعلم الناس بأقضية رسول الله ﷺ، وأصحابه الأوائل من الخلفاء الراشدين. وليس هناك في سيرته ما يشير إلى تقليد خاص أو سنة خاصة به؛ فيما عدا ما يقال عنه وعن باقي الأمويين من إماتتهم للصلاة بتأخيرهم لها، لكن إصرارهم على ذلك، وعلى تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين تقليد أخذوه عن عثمان كما كانوا يقولون[٤].

وعمر بن عبد العزيز الذي غير كثيرًا مما اعتبره من جانب السابقين عليه من خلفاء بني أمية. أصر على اعتبار بسم الله الرحمن الرحيم آية من كل سورة. وكل ذلك مأخوذ في نظر عمر الثاني، وأسلافه عن عثمان. ويوافقه عليه المدنيون، أو أكثر فقهائهم[٥]. فقد كان الأمويون يتجنبون الفقه والقضاء العراقيين لأسباب سياسية، ويتمسكون بالتقاليد المدنية؛ وبخاصة أن المدينة

(١) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ١٩٩.

(٢) المرجع السابق: ١٩٩-٢٠٠؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٠: ٣٩٥.

(٣) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٢٠٥.

(٤) يرد اتهام الأمويين بذلك، انظر: الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**: ١٠٤؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٣: ٢٢٩؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٣٤١-٣٤٢. ولذلك آثار في الأحاديث، ودواوينها في كيفية السلوك عند تأخير الصلاة عن وقتها. فهناك من يرى أن يصليها لوقتها في منزله، ثم يأتي فيصلي مع الأمير أو الخليفة في المسجد الجامع. وهناك من يرى أن يصليها لوقتها في منزله، ثم يأتي فيصلي مع الأمير أو الخليفة في المسجد الجامع. وهناك من يرى ضرورة انتظار صلاة الأمير مهما تأخر؛ للمقارنة، انظر: عبد الرازق، **المصنف**، مج. ٢: ٣٧٩-٣٨٧؛ ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٣: ٤٤٥؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج. ٩: ١٦٦. أن رجلًا أنكر على الوليد بن عبد الملك تأخيره للصلاة فقتله. وكان من عادة الأمويين أيضًا الجلوس على المنبر أثناء خطبة الجمعة، انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٤: ١١٧؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، مج. ٢: ١٢٣٣-١٢٣٤؛ الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**: ١٠٣-١٠٤.

(٥) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٢٠. وقد ضرب عطية بن قيس أخاه لأنه رفع يديه في التكبير فعزله الأمويون، انظر: المرجع السابق: ٣٤٦-٣٤٧ . وعزل عبد الملك أبا إدريس الخولاني عن الإمامة لأنه رفض رفع يديه في الصلاة، انظر: المرجع السابق: ٦٠٤.

كانت دار الهجرة والسنة[١]. وقد شاعت بينهم قولة أحدهم[٢]: «إذا كان علم الرجل حجازيًّا، وخلقه عراقيًّا، وطاعته شامية فقد كمل». وإذا كان معاوية قد اعتمد على الأنصار وتلامذتهم في القضاء بالشام؛ فإن عبد الملك بن مروان تربى بالمدينة. ويقال إنه كان أحد فقهائها الواعدين[٣]. وقال في إحدى خطبه بالمدينة بعد مقتل ابن الزبير[٤]: «إن أحق الناس أن يلزم الأمر لأنتم؛ فالزموا ما في مصحفكم الذي جمعكم عليه الإمام المظلوم رحمه الله. وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم؛ فإنه استشار في ذلك زيد بن ثابت - ونعم المشير كان للإسلام رحمه الله - فأحكما ما أحكما، وأسقطا ما شذ عنهما». وزيد بن ثابت أنصاري مدني أسهم في جمع القرآن أيام عثمان؛ كما أسهم - ما يقول عبد الملك - في الإفتاء بشأن المواريث. والمعروف أن بداية علاقة محمد بن شهاب الزهري (-١٢٤هـ) بعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) كانت في سؤال عبد الملك له قضاء عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد؟، فقد قال قبيصة بن ذؤيب كاتب عبد الملك، وأمين سره؛ وهو حجازي خزاعي[٥] أيضًا للزهري: «لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله»؛ ثم قاده إلى عبد الملك فقص الزهري[٦]عليه قضاء عمر في أمهات الأولاد[٧].

ولو كان عبد الملك يريد إحداث سنة ملكية، أو شامية خاصة لما اهتم لمسألة كهذه. ولما بحث عن قضاء عمر، وقضاء المدينة فيها. وهناك أقوال عنه في عدم استحسانه جمع السيرة النبوية بروح ثأرية ضد الأمويين الذين تأخر إسلامهم[٨]. لكن المعروف أن الزهري جمعها

(١) الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٣٥١.
(٢) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٣١٦.
(٣) إحسان عباس، «عبد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره»، **مجلة دراسات العلوم الإنسانية** ١٣، العدد ١ (١٩٨٦): ١٠٦.
(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٤: ٢٣٣.
(٥) الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٥٥٧؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٣: ٢٩١.
(٦) ترجمة الزهري، انظر: ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**: ١٨، ٢٤؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤٠٨؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج. ١: ٤٢٤.
(٧) عن قضاء عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد، انظر: العسكري، الأوائل، مج. ١: ٢٣٩-٢٤٠؛ الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٤٤٢؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣ هـ، **الفقيه والمتفقه**، مج. ٢ (د.م.: دار ابن الجوزي، ١٩٩٦): ٦٣؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤٠٨.
(٨) الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**: ٣٣١-٣٣٣.

أيامه وأيام الوليد وهشام وعلمها للخلفاء الأمويين وأولادهم كما دون لهم الحديث[1]. وفي مسند أحمد بسنده إلى غضيف بن الحارث الثمالي (-٨٠هـ)؛ أن عبد الملك قال له مستشيرًا: «قد جمعنا الناس على أمرين، رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر! قال غضيف: أما إنهما أمثل بدعتكم عندي، ولست مجيبك إليهما! قال: ولم؟ قال: لأن النبي ﷺ قال: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع الله مثلها من السنة». وقد ذكرنا من قبل خطبة لعبد الملك أراد فيها من أهل المدينة أن يقتصروا على قراءة القرآن؛ وقد فعل هو ذلك بدمشق. إذ تابع تشجيع المحاولة التي بدأها معاوية؛ حتى تحولت القراءة إلى مجالس دراسة منتظمة بالمسجد الجامع على يد هشام بن إسماعيل المخزومي بدمشق، وعلى يد الوليد بن عبد الرحمن الجرشي بفلسطين[2]. وقد احتفظ الإمام مالك بن أنس في موطئه لعبد الملك، ووالده مروان ببعض الأقضية والفتاوى باعتبارهما من فقهاء أهل المدينة. وتذكر المصادر عن الوليد بن عبد الملك إقبالاً على قراءة القرآن. ثم إنه حاول للمرة الأولى أن يوحّد أقضية القضاة بجمعهم على قضاء قاضية خالد بن معدان (-١٠٤هـ). لكنه لم يفلح في ذلك على ما يبدو، أو أن عمر بن عبد العزيز نقض ذلك. إذ نقرأ في تاريخ أبي زرعة الدمشقي بسنده عن سليمان بن حبيب؛ الذي ظل قاضيًا حتى خلافة الوليد بن يزيد[3]: «أراد عمر بن عبد العزيز أن يجعل أحكام الناس والأجناد واحدًا؛ ثم قال: إنه قد كان في كل مصر من أمصار المسلمين، وجند من أجناده ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضوا بها وأمضاها أهل المصر؛ كالصلح بينهم. فهم على ما كانوا عليه من ذلك». أما سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)؛ فنقرأ في خطبة بيعته[4]: «اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارتضوا به حكمًا، واجعلوه لكم قائدًا؛ فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب بعده. واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان؛ كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عسعس». أما أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥-

(١) ترجمة الزهري، انظر: ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**: ٢٨-٣٦؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤١٣.

(٢) المرجع السابق، مج. ٢: ٧١٣. أما الرواية الزبيرية الهوى عن نهي عبد الملك عن كتابة سيرة النبي ﷺ فتبدو غير مرجحة. للمقارنة، انظر: الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**: ٣٣١؛ السيد، **الأمة والجماعة والسلطة**: ١٨٣.

(٣) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٢٠٢.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، مج. ٢: ٢٤٧؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مج. ٤: ٩١؛ الجاحظ، **البيان والتبيين**، مج. ١: ١٦٦؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب، مج. ٢: ٢٠٠.

١٢٤هـ)؛ فكانت طبقة من الفقهاء قد تكونت بالشام، وسيطرت على أكثر المناصب الإدارية؛ بالإضافة للقضاء، والقصص، وتعليم أولاد الخليفة وإخوته[١]. فبطانة هشام تذكر أن علماء الناس الذين كانوا يفتون أيام هشام هم[٢] الزهري بالحجاز، ومكحول بالشام، وميمون بالجزيرة، والحسن بالعراق. وهشام يغار من الكنديين؛ لأن كل فقهاء الشام منهم تقريبًا[٣] رجاء بن حيوة بفلسطين، وعبادة بن يحي بن يحي بدمشق، وعدي بن عدي بالجزيرة. ومسلمة بن عبد الملك أخو الملك يقول[٤]: «إن في كندة ثلاثة إن الله عز وجل ينزل بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء؛ رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي، وعدي بن عدي. فالصالحون من الفقهاء والزهاد هم أهل البركة؛ وليس الخليفة».

أما عمر بن عبد العزيز؛ فقد درس بالمدينة على يد كبار علمائها؛ من مثل عبيد الله بن عتيبة بن مسعود، وسعيد بن المسيب، وعروة بن أذينة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وسالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والزهري[٥]. ولما ولي الخلافة استقدم منهم من رضي المجيء إليه؛ كما استعان بعلماء آخرين؛ من مثل عراك بن مالك، ويسر بن سعيد، وابن أبي الزناد[٦]. ويعده أصحاب طبقات الفقهاء، ورجالات علوم الحديث والسنة بين فقهاء التابعين[٧]. وقد احتفظت كتب القضاة، ومصنفات مسانيد الحديث ببعض فتاويه واجتهاداته. ويبدو من رسائله العديدة إلى ولاته، وأمره لواليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بجمع السنن أنه كان يملك

(١) أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٦٠٧؛ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، مج. ١٠: ١٧٧ (بلال بن سعد تميم). (وابصة بن معبد)، انظر: أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٢٨٦. (سليمان بن حبيب)، انظر: المرجع السابق، مج. ٢: ٧٠٠-٧٠١. (الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، وشعيب بن أبي حمزة)، انظر: المرجع السابق: ٧١٣، ٧١٥، ٧١٦. (علي بن أبي حملة)، انظر: المرجع السابق: ٣٤٢. (إسحاق بن أبي حمزة)، انظر: المرجع السابق، مج. ١: ٣٣٩. (علي بن أبي حملة)، انظر: المرجع السابق، مج. ٢: ٣٤٢. (إسحاق بن قبيصة ... إلخ)، انظر: المرجع السابق، مج. ١: ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٣١٥.

(٣) المرجع السابق، مج. ٢: ٧١١.

(٤) المرجع السابق، مج. ١: ٣٣٧.

(٥) المرجع السابق، مج. ٢: ٧١٤.

(٦) المرجع السابق، مج. ١: ٤١٩-٤٢١.

(٧) جمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، ت ٤٧٦ هـ، **طبقات الفقهاء** (بيروت: دار الرائد العربي، ١٧٨٠): ٣٦ وما بعدها.

مفهومًا للسنة أوسع مما صار متعارفًا عليه فيما بعد[١]. ففي خطبته التي أشرنا إليها قبل؛ يقول[٢]: «سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر من بعده سننًا. الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله؛ ليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها». فاعتبر السنة أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وسيرة الراشدين الأوائل أيضًا. ويبدو أن هذا المفهوم مديني أيضًا بدليل أننا نراه مرويًّا عن سعيد بن المسيب والزهري[٣]. وقد أكد من جانبه على أن السنة مصدر تشريع بعد الكتاب مباشرة؛ لذلك طلب من واليه على المدينة أن يدون السنن عن كبار التابعين؛ وبخاصة عن عمرة بنت عبد الرحمن التي سمعت من عائشة أم المؤمنين. لتكون مرويات عمرة المسندة عن عائشة مصدرًا تشريعيًّا لا يتطرق إليه الشك في الرواية؛ وبالتالي في الحجية. وفي الوقت نفسه كتب إلى المصريين، وسائر الأمصار كتبًا طويلة يخبرهم فيها بأهم السنن، والسوابق الفضائية بالمدينة. بل أرسل إلى بعض الأمصار والسوابق من يعلم أهلها السنن[٤]. وأمر للشبان المقبلين على تعلم القرآن والسنة بالمسجد الجامع بحمص لكل بمائة دينار لكي يظلوا متفرغين لذلك[٥]. وحدد للمرة الأولى بوضوح موقع إمام المسلمين من مصادر التشريع؛ فقال[٦]: «ليس لأحد في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ أمر ولا رأي؛ إلا إنفاذه والمجاهدة عليه. وأما ما حدث من الأمور التي تبتلى الأئمة بها مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ؛ فإن والي المسلمين وإمام عامتهم لا يقدم بين يديه، ولا يقضي فيها دونه. وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى».

وهذا بعد مراعاة الكتاب، وسنة النبي ﷺ، وما جرى عليه العمل في الأمصار من أقضية وافق عليها الصحابة النازلون هناك. مغزى تصرفات عمر بن عبد العزيز كلها؛ هو الاتباع لا الابتداع.

(١) الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٤٢٢-٤٤٣؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣ هـ، **تقييد العلم** (بيروت: إحياء السنة النبوية، د.ت.): ١٠٥-١٠٦.

(٢) ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**: ٤١.

(٣) الخطيب البغدادي، **الفقيه والمتفقه**، مج. ١: ١٧٤؛ الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٤٧٥؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤١١.

(٤) المرجع السابق: ٦٢٨.

(٥) المرجع السابق: ١١٨؛ الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٦٢٤.

(٦) ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**: ٤٢.

والاتباع معنى به القرآن وسنة النبي والراشدين، وما جرى عليه العمل في الأمصار المختلفة. وطبيعي بعد هذا كله أن لا يكون هنا مكان لسنة الخلافة، أو لسنة أموية. ثم إن الوليد بن يزيد على كثرة ما ابتلي به من اتهامات في دينه وشرفه؛ وجد من يدافع عنه في شخص الخليفة العباسي المهدي (١٥٩-١٦٩هـ)؛ الذي قال: «إن الله سبحانه أرحم بالمسلمين من أن يولي خلافتهم زنديقًا[1]!». أما يزيد بن الوليد؛ فأراد العودة بالناس إلى سيرة أبي بكر وعمر. وهكذا فإن الأمويين الذين ما كانوا من أولياء الله الصالحين؛ لم يكونوا أيضًا مخترعي أديان، أو تقاليد دينية جديدة.

فأما الخصوصيات التشريعية التفصيلية في بعض الشعائر والأقضية فهي خصوصيات شامية كان للعراقيين والمدنيين مثلها؛ بل أكثر منها. ولا ينفرد الأمويون- كما أوضح عمر بن عبد العزيز - بالمسئولية عنها. لكن هناك أمرًا آخر يتعلق بتطور علاقة الدين بالدولة. فقد فشل الأمويون؛ كما فشل من بعدهم العباسيون في إبقاء المؤسسة السياسية مهيمنة على الدين، وظهرت فئة الفقهاء والمحدثين التي استطاعت في النهاية أن تنتزع المرجعية الدينية من الدولة رغم استمرار النزاع، وعدم اعتراف أي من الطرفين للآخر بذلك نهائيًّا؛ فحدث انفصام بين السياسة والشريعة وليس بين الدين والدولة. لكن هذا التطور التاريخي شيء، والزعم بأن الخلافة حاولت دائمًا ابتداع سنة خليفية تناسب الرسالة والرسول شيء آخر.

تحدد عبارة الحسن البصري التي اقتبسناها سابقًا وصول معاوية للسلطة باعتباره نقطة تحول في طبيعة النظام السياسي الإسلامي. ويقول المحدثون المسلمون إن الخلافة تحولت إلى ملك. ويرد في المصادر أن عبد الرحمن بن أبي بكر (-٥٧هـ) هو الذي استنتج هذا التغيير؛ لكن ليس من مطلع عهد معاوية؛ بل عندما حاول معاوية بعد العام ٥١هـ أو ٥٦هـ مبايعة يزيد ابنه خليفة من بعده. إذ رفض عبد الرحمن ذلك مع من رفضوا من أبناء كبار الصحابة وقال: «إنما تريدون أن تكون هرقلية. كلما مات هرقل قام هرقل!». ومعنى هذا أن أهم خصائص النظام الملكي، أو القيصري في نظر ابن أبي

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف** مج. ٢: ٣١٤، ٣٣٥.

بكر توارث السلطة؛ وإن يكن معاوية يتحدث عن البيعة لا عن الوراثة. لكن في رواية أخرى أن معاوية نفسه هو أول من أطلق هذه التسمية على عهده عندما قال: «أنا أول الملوك». وذلك دون أن يذكر السبب أو الخصيصة التي ميزته عن الخلفاء السابقين. لكننا نعلم أن معاوية كان حريصًا على الانتظام في سلك الخلفاء الثلاثة الأوائل فمن المستبعد أن يكون هو نفسه قد سمى نظامه ملكيًّا.

وما يهمنا هنا إيضاح أصول هذا التصور ومعناه وتطوراته لدى المحدثين بغض النظر عن مغزاه السلبي بالنسبة لرؤية سلطة الأمويين:

جاء في دواوين الحديث بأسانيد متشابهة عن أبي هريرة بطريق أبي حازم مرفوعا[1]: «قاعدت أبا هريرة خمس سنين؛ فسمعته يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبي خلف نبي. وإنه لا نبي بعدي. إنه يكون - أو ستكون - خلفاء فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول. أعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

ب- وتذكر المصادر عن عتبة بن غزوان (-١٧هـ) الصحابي، ومؤسس مدينة البصرة قوله[2]: «لقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعام إلا ورق الشجر. فما أصبح منا اليوم واحد؛ إلا وهو أمير على مصر من الأمصار. فإنها لم تكن نبوة إلا تناسخت حتى تكون عاقبتها ملكًا».

ج - حدثنا ابن علية[3] عن أيوب عن أبي قلابة أن رجلًا من قريش يقال له ثمامة - كان على صنعاء - فلما قتل عثمان بكى فأطال البكاء فلما أفاق قال: «اليوم انتزعت النبوة وخلافة النبوة من

(١) عن الأثر، انظر: ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٢: ٢٨٧؛ البخاري، **صحيح البخاري**، مج. ٤: ٢٠٦؛ مسلم، **صحيح مسلم**، مج. ٣: ١٠٧١، رقم ١٨٤٢؛ ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣ هـ، **سنن ابن ماجه**، مج. ٢ (د.م.: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.): ٩٥٩، رقم ٢٨٧١؛ أبو عوانة، **مسند أبي عوانة**، مج. ٤: ٥٨.

(٢) نعيم بن حماد، **الفتن**: ٢٣؛ الجاحظ، **البيان والتبيين**، مج. ٢: ٥٧-٥٨؛ ابن عبد البر، **الاستيعاب**، مج. ٣: ١٠٢٩؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مج. ٤: ١٣١؛ أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس، ت [٤٠٠] ه، **البصائر والذخائر**، مج. ٢ (د.م.: دار صادر، ١٩٨٤): ١١-١٣؛ الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، مج. ١: ٣٤٠. بألفاظ مختلفة والرواية هنا عن الاستيعاب.

(٣) عبد الرزاق، **المصنف**، مج. ١١: ٤٤٧؛ ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٣: ٥٦٩١؛ ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ٩١؛ البخاري، **التاريخ الكبير**، مج. ١: ١٧٦؛ أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١٨: ٦٣٠؛ ابن عبد البر، **الاستيعاب**، مج. ١: ٢١٣؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مج. ١: ٢٠٥.

أمة محمد ﷺ، وصارت ملكًا وجبرية. من غلب على شيء أكله». وعن أبي موسى الأشعري - المتوفى حوالي العام ٥٠هـ - أنه قال بعد التحكيم[١]: «إنما الإمرة ما اؤتمر فيه، والملك ما غلب عليه بالسيف».

د- حدثنا أحمد بن منيع حدثنا شريح بن النعمان حدثنا حشرج بن نباتة عن سعيد بن جمهان؛ قال: حدثني سفينة؛ قال[٢]: قال رسول الله ﷺ: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة؛ ثم ملك بعد ذلك. ثم قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان ! ثم قال لي: أمسك خلافة علي! قال: فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد؛ فقلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، أو يزعمون أن عليًّا ليس بخليفة!. قال: كذب بنو الزرقاء بل هم ملوك من شر الملوك».

لقد رتبت هذه الآثار في الخلافة والملك ترتيبًا يظهر بدايات ظهورها، وانتشارها، وقدمها. وأحسب أن أقدمها الأثر رقم (أ) الذي يحدد الفروق بين بني إسرائيل وبين المسلمين. أما عند المسلمين فإن محمدًا ﷺ خاتم النبيين؛ لذلك لا بد من خلفاء، أو ملوك. والأثر يطلب من المسلمين أن يراعوا أنهم لا يستطيعون أن يطلبوا في ملوكهم ما وجدوه في نبيهم؛ فلا بد من الاقتناع بأن هناك تغايرًا، وأنه لا يستطيع أحد بعد النبي ﷺ المطابقة الكاملة بين المثال والواقع. أما الخطبة الواردة عن عتبة بن غزوان فتبدو أكثر تشاؤمًا؛ إذ تجعل من تحول النظام النبوي إلى نظام ملكي سنة عامة لا مهرب منها. وعتبة بن غزوان مقتنع أن ذلك آتٍ لدى المسلمين بدون شك؛ لذا يدعو الله أن يموت قبل ذلك. لكن هذا يعني أنه لا يعتبر عهدي أبي بكر وعمر ملكيين. ويتضح ذلك تمامًا في قولتي ثمامة، وأبي موسى الأشعري. إذ تبدأ الملكية عندهما بعد عثمان؛ بل إن ثمامة يعتبر مقتل عثمان نهاية

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبير**، مج. ٤: ٩٤؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٢: ٧٥.

(٢) ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٥: ٢٢٠؛ أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري، ت ٢٠٤ هـ، **مسند أبو الطيالسي**، مج. ٢ (بيروت: دار المعرفة، د.ت.): ١٦٣؛ أبو داود، **سنن أبي داود**: رقم ٤٦٤٦-٤٦٤٧؛ الترمذي، **سنن الترمذي**: رقم ٢٢٢٦. نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت ٨٠٧ هـ، **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان** (د.م.: دار الثقافة العربية، ١٩٩٠): رقم ١٥٣٤؛ الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت ٤٠٥ هـ، **المستدرك على الصحيحين**، مج. ٣ (د.م.: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢): ٧١-١٤٥؛ الترمذي، **سنن الترمذي**، مج. ٢: ٣٥. «وهذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان». سألت أحمد بن حنبل عن حديث سفينة: الخلافة بعدي ثلاثون سنة يثبت؟ قال: نعم! قد رواه بهز عن حماد بن سلمة عن سعيد بن جمهان عن سفينة. وحسبت أنه قال: ورفع من ذكر بهز. وفي **مصنف ابن ابي شيبة** بسنده عن الوليد بن عقبة، انظر: ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ٩١. لم تكن نبوة إلا بعدها ملك، انظر: أبو زرعة، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، مج. ١: ٤٥٦-٤٥٧. للمقارنة، انظر: جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، ت ٧٤٢ هـ، **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، مج. ٤ (د.م.، د.ت.): ١٩٩.

لعهدي النبوة، وخلافة النبوة، وبداية لعهد الملك والجبرية. أما أبو موسى الأشعري؛ فيحدد الفرق بين الإمارة، أو الخلافة والملك بأن الإمارة نتيجة لشورى، والملك يتوصل إليه بالقوة. وهذا ما قاله الحسن البصري عن معاوية. ونصل إلى حديث سفينة المشهور؛ فيبدو الأمر كله موجهًا ضد الأمويين. ولا يكتفي سعيد بن جمهان - الزبيري الهوى- بتحديد الثلاثين عامًا للخلافة والباقي للملك؛ بل يريد هجومًا مباشرًا على الأمويين؛ فيبدو ذلك في العبارة الأخيرة في الأثر رقم (د) المنسوبة إلى سفينة راوي الحديث: بنو الزرقاء[1](المرانيون): «ملوك من شر الملوك! ولا يكتفي خصوم الأمويين بذلك؛ بل يروون آثارًا في ذم معاوية، ومروان بن الحكم؛ بل والوليد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد[2]». ويثبت من ذلك كله لدى المحدثين؛ بل وفي بعض كتب عقائد أهل السنة[3] الأثر عن سفينة الذي يجعل الأمويين ملوكًا في مقابل خلافة النبوة التي كان مقدرًا لها أن لا تستمر أكثر من ثلاثين عامًا.

إن الواضح أن محاولات الأمويين لتأصيل سلطتهم وتثبيتها لا يمكن أن تفهم على أنها ببساطة إحساس من جانبهم بالافتقار إلى الشرعية. فالبحث عن الشرعية كان همًّا واحدًا من هموم متعددة، أو أنه كان جزءًا من تصور عام، وصورة شاملة عن الذات والآخر. إن خلافة الله كانت رؤية شاملة لتنظيم اجتماعي وسياسي عالمي متصل بمفهوم وراثة الأمر والأرض. لقد رأى الطبري مثلاً في تاريخه أن النبوة والكتاب كانا في أعقاب نوح وإبراهيم؛ بينما كان الملك والسلطان في فارس منذ بيوارسب والضحاك وحتى الساسانيين. والتقى هذان الخطان في النبي محمد ﷺ؛ فورث وأمته النبوة

(١) علي بن أحمد ابن حزم، ت ٤٥٦ هـ، **جمهرة أنساب العرب** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧): ٨٧. في نسب الحكم بن أبي العاص: «كان عثمان الأكبر ومروان وعبد الرحمن والحارث أشقاء أمهم اسمها أرنب، وهي من بني مالك بن كنانة، وهي الزرقاء التي كان يعير بها عبد الملك وغيره من بني مروان، وهي بنت علقمة بن صفوان الكنانية ...»

(٢) قارن عن هذه الآثار، انظر: نعيم بن حماد، **الفتن**: ٢٦؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، مج. ٤: ٥٨؛ ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مج. ٣: ٨٠؛ الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، مج. ٤: ٤٧٩؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ٣: ٧٣. ويبدو أن بعض المحدثين أراد التخفيف عن بني أمية قليلاً فروى أثرًا عن أنس بن مالك، (انظر: ابن أبي شيبة، **مصنف بن أبي شيبة**، مج. ١١: ١٩٧). جاء فيه : «ستكون ملوك ثم الجبابرة ثم الطواغيت»!

(٣) للمقارنة بالأثر، انظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت ٨٠٨ هـ، **مقدمة ابن خلدون**، مج. ٢ (د.م.: مكتبة لبنان، ١٩٩٢): ١٣٨-١٣٩؛ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ت ٧٩٣ هـ، **شرح العقائد النسفية** (د.م.، د.ت.): ٢١٤.

والكتاب والأمر والأرض[١]. ولقد رأى أحد علماء السياسة المعاصرين[٢] أن أهم أسباب استمرار السلطة ليس قدرتها على القمع؛ بل استعداد الناس للخضوع والطاعة. وقد كانت هناك مسألتان تحددان بالنسبة للعرب المسلمين موقفهم من سلطتهم في القرن الهجري الأول؛ مدى اقتناع السلطة بالمشروع الشامل للأمة في الرسالة والوراثة، وهذه هي الشرعية التأسيسية. ومدى قدرة السلطة على تحقيق الأمن، والعدالة، والتوازن في الداخل؛ وهذه شرعية المصالح. وقد طرأ الخلل بشكل أساسي على شرعية المصالح في العراق والحجاز وخراسان. فلما وصل إلى الشام سقطت الدولة. لكن تمرد الحارث بن سريج في خراسان (١١٦-١٢٨هـ)، وظهور الدعوة العباسية يشير إلى بعض الخلل في الشرعية التأسيسية أيضًا.

ولقد كان هناك من رأى أن الخلل في طبيعة النظام السياسي الإسلامي نفسه مما حال ويحول بينه وبين التحول إلى مؤسسة[٣]. ويرجع ذلك إلى أن المسلمين كانوا يبحثون كل الوقت عن مؤسسة بديلة، أو تعويضية عن مؤسسة النبوة تسد الفراغ، وتعيد المثال الأول. لذلك بدت كل أشكال السلطة بعد موت النبي ﷺ مخيبة للآمال، وناقصة الشرعية، ومقضيًّا عليها بالسقوط. لكن هذا غير صحيح؛ وهو يعود بنا وإن بشكل آخر لمسألة الصراع المزعوم بين سنة النبوة، وسنة الخلافة. ففي نص القرآن أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، وأن الأمة هي الوارثة. وفي الأثر القديم الذي أوردته أن مسألة السلطة في الإسلام غيرها عند بني إسرائيل.

لقد كان أهل الشورى، وأصحاب الكتاب والسنة، وأنصار إمارة المؤمنين أعلى الناس صوتًا في معارضة الأمويين، والمطالبة بإزالة ملكهم. لكنهم عندما سقطوا لم يسقطوا لصالح هذا التيار؛ بل لصالح تيار القرابة وخلافة الله. فقد تمكنت جماعة صغيرة في الأصل، حسنة التنظيم، أيديولوجيتها خلافة الله والقرابة بالنبي أن تقطف ثمار الصراع بين أهل الملك وأهل الشورى. لكن سقوط

(١) انظر عن ذلك:
Heribert Busse, "Arabische historiographie und geographie", in *Grundrisse der arabischen philology*, vol. 2 (Wiesbaden, 1987): 271.

(٢) Maurice Godelier, "Infrastructures, Societies and History", *New Left Review I*, No. 112 (Nov-Dec 1978): 84-96.

(٣) Tilman Nagel, *Rechtleitung und Kalifat* (Bonn, 1975): 63ff.

الأمويين لم ينه النزاع بين كتاب الله وسلطان الله كما جاء في بعض الآثار. كما أن سقوط الأمويين لم ينه ذكراهم في إخلاد الناس وأوهامهم، وأحلامهم المهدية والنشورية. ففي المصادر أن هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ) سأل أبا بكر بن عياش عن رأيه في الأمويين، والعباسيين وقد أدرك الدولتين؛ فأجاب: «أنتم أقوم بالصلاة، وأولئك كانوا أنفع للناس».